

الفصل الرابع

منتخبات من آثار إبراهيم اليازجي

١- إبراهيم اليازجي الشاعر

- في المدح

السماك الأعزل

قال يمدح صبحي باشا أحد وزراء الدولة العثمانية :

هذا وزيرُ المَلِكِ ذو الشَّرَفِ الذي أزرى الثرياَ والسماكَ الأعزلاً^(١)
أمضى من السَّهْمِ المذلقِ نظرةً في كلِّ معظمةٍ وأفتكُ مَقْتلاً^(٢)
وأسدُّ مَنْ عَرَكَ الأُمُورَ تصرفاً في حين لا يجدُ اللَّبيبُ مُعولاً^(٣)
ولِي البلادَ فكانَ فيها عدلُهُ ظللاً وكانَ الأَمْنُ فيها منَهلاً
أبدًا يُراعِيها بطرفِ ساهِرٍ حَلَفَ الحِفاظُ عليه ألا يغفلاً
فَصَلُّ الخِطابِ إِذا قَضَى وَإِذا انبَرى يحكى بهمتهِ القضاءَ المنزلاً
وَإِذا يفوهُ تَأثرتْ من لفظهِ دررٌ تقلدها المعاصمُ والطلُّ^(٤)
تهوى النفوسُ عليه مِنْ أَلطافِهِ فتردُّها عنه المهابةُ والعلى

(١) أزرى : ارتفع . الثريا : اسم لمجموعة من النجوم . السماك : نجم نير ومنه السماكان الأعزل والرامح نجان نيران .

(٢) المذلق : الماضي بسرعة .

(٣) عرك الأمور : خبر الأحوال واحتك بها .

(٤) تقلدها : تتقلدها . المعاصم : ما فوق الكف من اليد ، الطلى : العنق .

حاولت أن أثني عليك فخايتي
 فرأيتُ مدحك لا تفيهِ عبارةُ
 وعلمتهُ فقصيري بوصفك عاجزاً
 ولعلَّ عَجْزِي فِي مَدِيحِكَ نَاطِقٌ
 قَلَمٌ أَرَاهُ غَدَا بِكَفَى مِغْزَلاً^(١)
 وَرَأَيْتُ مَدْحَ الْأَكْثَرِينَ تَمَحُّلاً^(٢)
 وَعَلِمْتُهُ فَعَدَّرْتَنِي مُتَّفَضِّلاً
 عَنِّي بِأَفْصَحَ مِنْ ثَنَائِي وَأَطْوَلَ^(٣)
 لَاحَ الصَّبَاحِ إِذَا تَأَلَّقَ وَأُنْجَلَى^(٤)
 وَالصُّبْحُ أَوْضَحُ مِنْ مَقَالَةِ قَائِلِ

حكمة المعبود

وقال يمدح جلالة أوسكار الثاني ملك أسوج ونروج ويذكر قدوم أحد أنجاله إلى المشرق سنة ١٨٩٠ م ويشير إلى نوط العلوم والفنون الذي أهداه إليه :

مَلِكٌ أَحَلَّتُهُ أَسُوجٌ وَذَكَرُهُ
 ضَمَّ الصَّفَائِحَ وَالصَّحَائِفَ فِي يَدِ
 يَطْوِي مِنَ الْآفَاقِ كُلِّ بَعِيدٍ^(٥)
 ضَمَّتْ مِنَ الْأَخْطَارِ كُلِّ مَجِيدٍ^(٦)
 وَغَدَا لِأَهْلِ الْعِلْمِ خَيْرَ عَمِيدٍ
 فَأَصَابَ فِي الْأَمْلَاقِ أَشْهَرَ مَوْضِعٍ

* * *

وَلَقَدْ سَنَنْتَ لِكُلِّ فَضْلٍ مَنَهَجًا
 وَرَفَعْتَ بِنَدِّ الْعِلْمِ فَاحْتَشَدَتْ بِهِ الْإِ
 بِكَ أَهْلُهُ تَأْتَمُّ هَدَى رَشِيدٍ^(٧)
 عِلْمَاءُ تَحْتَ لِوَائِكَ الْمَعْقُودِ^(٨)

(١) المغزل : آلة لغزل الصوف والقطن خيطاناً .

(٢) التحل : طلب الشيء بحيلة وتكلف .

(٣) ثنأى لغة في ثنأى : مدحى .

(٤) تألق : لمع . أنجل : وضع وظهر .

(٥) الآفاق جمع الأفق : ما بعد عن النظر بحيث ترى آخر الفضاء ملاصقاً للأرض .

(٦) الصفائح : كناية عن السيوف .

(٧) المنهج : الطريق .

(٨) البند : العلم واللواء .

نَزَلُوا عَلَى كَنْفٍ كَرِيمٍ عِنْدَهُ نَعَمُوا بِظُلٍّ مِنْ نَدَاكَ مَدِيدٍ^(١)
 وَأَنْلَتْهُمْ شَرَفًا بِهِ حَمِدُوا الَّذِي أَلْفَوْهُ مِنْ نَصَبٍ وَمِنْ تَسْهِيدٍ^(٢)
 وَتَعَرَّفَتْ فِيكَ الْعُلُومُ بِأَنَّهَا فَخْرٌ لِكُلِّ مَسُودٍ وَمَسُودٍ

* * *

ولقد كساني حسنُ رأيك حُلَّةً غَضَّتْ مُحَاسِنُهَا عُيُونَ حَسُودٍ
 قَلْدَتَنِي فَخْرًا غَدَا لِي حِجَّةً فَتَنَّاوَلُوا الْبِرْهَانَ مِنْ تَقْلِيدِي
 رَسْمٌ رَأَيْتُ بِهِ جَلَالَكَ مَائِلًا فَنَكَصْتُ بَيْنَ مَهَابَةٍ وَسُجُودٍ^(٣)
 شَرَفٌ لِيَصْدُرِي وَهُوَ أَرْفَعُ مَنْزِلًا مِنْ أَنْ يَحِلَّ بِلَبَّةٍ أَوْ جِيدٍ^(٤)
 فَلَكَ الثَّنَاءُ عَلَى مَدْحَةٍ مَنَعِمٍ مَا إِنْ يَقَابِلُ فَضْلَهُ بِجُحُودٍ^(٥)
 قَصْرَتْ فِي مَدْحِكَ حَتَّى تَاحَ لِي قَدْرُ الْوَفَا فَنَشِطْتُ بَعْدَ قُعُودِي

* * *

وَرَأَيْتُ رَسْمَكَ فِي أَجَلٍّ مَصُورٍ رَسَمْتِكَ فِيهِ حِكْمَةُ الْمَعْبُودِ^(٦)
 فَرَعٌ لِدَوْحَتِكَ الشَّرِيفَةِ قَدَأَنِي مِنْ عَزْكَ الْمَرْفُوعِ تَحْتَ بُنُودِ^(٧)
 رِيَّانٍ تَقْدَمُهُ السَّعُودُ إِذَا مَشَى وَيُحَفُّ مِنْ مَلَأِ السَّمَاءِ بِجُنُودِ

(١) الكنف : الجانب .

(٢) التسهيد : السهاد والأرق .

(٣) نكص : رجع وتأخر .

(٤) اللبة : المنحر ، موضع القلادة من الصدر .

(٥) الجحود : نكران النعمة .

(٦) أى أنه صورة طبق الأصل عن أبيه .

(٧) الدوحة : الشجرة العظيمة استعيرت للأسرة المالكة . بنود جمع البند : العلم واللواء .

شخصتْ لموكبِهِ العيونُ فأبصرتْ
ولقد أقولُ لثغرِ بيروتَ ابْتِسِمُ
وإفَّاكَ مَنْ طربتْ لمقدمِهِ رُبِي
هذا ابنُ أسكارِ العظيمِ قد انْجَلَتْ
نعشتْ بِشائِرُهُ المُنَى فتهلَّلتْ
وإفَى فحِيَّاهُ سُهَيْلُ ورفرفِ ال
هو صفوَةُ الشرفِ العريقِ سلسلاً
بدرًا تآلَّقَ في عَمَامِ وفودِ (١)
بلقاءِ أبناءِ الملوكِ الصَّيْدِ (٢)
لبنانَ فاتَّشَحَّتْ بيبيضِ بُرودِ
بالسَّعْدِ غرَّةَ نجمهِ المرصودِ (٣)
قبلَ اللِّقَاءِ بيوفدهِ الموعودِ
نسرُ المجدِ مصفَّقاً في العودِ (٤)
من عهدِ آباءِ لَهُ وجُدودِ

ب - في الرثاء

حكم الأقدار

من قوله في صباه يندب أخاه الشيخ حبيباً الذي قضى شاباً وأثرت وفاته في والده فتتوفى بعده بزمن قليل :

* * *

سَأبُكِي عليه كَلِّمًا لآخِ بارِقُ
برابِيَّةٍ فاستمطرَ الدَّمْعَ لآئِحُهُ (٥)
وَأُنْدُبُ ما نأحِ الحمَامُ فهِيجتْ
بِلاِبَلِ قَلْبِي للشُّجُونِ مَنَائِحُهُ (٦)

(١) تآلق : لمع .

(٢) الصيد جمع الأصيد : الملك ، وأطلق عليه لأنه لا يلتفت زهوه يميناً ولا شمالاً .

(٣) غرة : طلعة .

(٤) سهيل : اسم لنجم . وفي البيت تورية في قوله النسر يراد به النسر الواقع وهو اسم النجم

أو الطائر المعروف .

(٥) لاح : ظهر . الرابية : المرتفع من الأرض .

(٦) الشجون : الأحزان .

«حبيب» شجى قلبى المبرح نعيمه
وأدركنى ما لم أكن متوقفاً
وإن يك أمسى مفرداً فى ضريحه
«حبيب» له فى الحب عندى وموائق
أريحان نفسى أذهب الدهر أنسها
وكننا يداً فى الدهر حتى أصابنا
ويوم تلقانى فضيع شوومه

* * *

ولا بُدَّ لِلإلْقَيْنِ مِنْ يَوْمٍ فَجَعَةٍ
تَحْمَلُهَا الْباقِ فَطالَتْ بوارِخُهُ
إذا أمضتِ الأقدارُ قاطع حُكْمِهَا
تَضيقُ على لَيْثِ الفِلاقِ مَسارِحُهُ (٥)
عليه سلامُ الله ما لاحَ بارقُ
وعاهدُهُ غادى السَّحابِ ورائِحُهُ

عبرة الأعلام

وقال يرثى الأمير محمد أربلان وقد توفى فى القسطنطينية :

حياةُ أسرُ العيشِ فيها مُدْمَمٌ وناسٌ بها قلبُ الخلى مُتَمِّمٌ (٦)

(١) شجى : أحزن .

(٢) النوائح جمع النائحة : الباكية على الميت .

(٣) قوة العين : سرورها .

(٤) الحطب : المصاب .

(٥) الليث : من أسماء الأسد .

(٦) الخلى : الخالى من الهم .

سقت كل قلب كل يومٍ مشارباً
تشاغلت الأبوابُ فيها من الصبي
تبطل كل بالأماني ولم يزل
وما الأرض إلا قفرة زارت بها
لها كل يومٍ بيننا كل مُنذر
تنبهنا بعضاً ببعض فننشى
خلت دونها شم الحصون فلم تكن
وأصبح من قد كان يرهب بأسه
تراب من الأرض استوى تحت صورة
سلام على قبرٍ توسد تربة
وما كان يغنى لو تدانى ودونه
لئن لم تصب عيني ثراه فإن لي
وما جف دمي بعده غير أنه
نعاه لنا الناعي في كل مسمع

توهم فيها لذة وهي علقم^(١)
ولم تك أدنى صبوة حين تحلم^(٢)
يروح ويغدو وهو للموت مغمم^(٣)
أسود المنايا حولنا وهي حوم^(٤)
يُنَادِي عَلَيْنَا مُسْمِعًا وهو أبكم^(٥)
وأجفاننا في غفلة اللهو لوم^(٦)
لساكنها من غارة البين تعصم^(٧)
يُنَاحُ عَلَيْهِ بعد حين ويرحم^(٨)
تلوح عليها مدة ثم تهدم^(٩)
حبيب عليه من بعيد أسلم^(١٠)
من الرمس قد أمسى حجاب مخيم^(١١)
هنالك قلباً منه قد قطر الدم
يُدَمِّجُ خضراء الربى حين يسجم^(١٢)
كلام ولكن في الأضالع أسهم^(١٣)

(١) العلقم : اسم لنبات شديد المرارة .

(٢) الأبواب : جمع اللب : القلب . تحلم : تصير إلى الحلم ، الفتوة .

(٣) زارت : صاحت بها الأسود ، والزئير صوت الأسد . المنايا : جمع المنية ، الموت .

(٤) الأبكم : الأخرس .

(٥) شم الحصون : الحصون العالية . تعصم : تحفظ .

(٦) بأسه : شدته وقوته .

(٧) توسد : تمدد .

(٨) الرمس : القبر .

(٩) يسجم : يقطر ويسيل وهو يختص بالدمع ومحابة الماء .

(١٠) المسمع : الأذن .

تَنُوحُ عَلَى فَقْدِ الْأَمِيرِ مُحَمَّدٍ
 عَزِيزُهُ فِي كُلِّ عَيْنٍ مَدَامِعُ
 وَكَمْ مِنْ جِيوبٍ بَلَ قُلُوبٍ تَشَقَّقَتْ
 وَلَمَّا نَعَى فِي أَرْضِ لَبْنَانَ أَوْشَكَتْ
 كَرِيمٌ لَهُ مِنْ آلِ رِسْلَانَ مُحْتَدٌ
 وَمَنْ ذَكَرَهُ مَا يَعْجُزُ اللَّهُرَ سَلْبُهُ
 أَيَا مَنْ قَضَى فِي غُرْبَةِ الدَّارِ نَازِحًا
 رُوَيْدَكَ مَا لِلصَّبْرِ بَعْدَكَ مِنْ يَدٍ
 تَرَحَّلَتْ فِي شَرْخِ الشَّبَابِ مَغَادِرًا
 وَمِثْلُكَ مَنْ حَقَّ لَتَأْسُفُ بَعْدَهُ
 تَنُوحِ القَوَاقِي بَعْدَ يَوْمِكَ حَسْرَةً
 وَتَنْدُبِكَ الْأَقْلَامُ مِنْ حَيْثُ رَدَّدَتْ
 وَبَيْنَ المَذَاكِي وَالسُّيُوفِ مَنَاحَةً
 أَلَا يَا بَنِي رِسْلَانَ صَبْرًا لِفَقْدِهِ
 رِجَالٌ عَلَيْهِ بالدِّمَا تَنْتَلِمُ
 وَفِي كُلِّ قَلْبٍ جَمْرَةٌ تَنْتَضِرُ^(١)
 عَلَيْهِ وَكَمْ مِنْ أَوْجِهٍ فِيهِ نَاطِمُ^(٢)
 جِنَادِلُهُ مِنْ حَسْرَةٍ تَتَأَلَّمُ^(٣)
 وَمَنْ نَفْسُهُ مَجْدُ سَنَى مُعْظَمُ
 وَمَنْ شَكَرَهُ فِي كُلِّ ذِي مَنْطِقٍ فَمُ
 فَكَلَّ فَوَادٍ نَازِحٌ مُتَصَرِّمُ^(٤)
 إِذَا مَا اقْتَضَى الصَّبْرَ المَصَابُ العَرْمَرَمُ^(٥)
 مِنَ الحِزْنِ مَا يُوَدَى الشَّبَابَ وَيُهِرَمُ^(٦)
 وَغَيْرُكَ مَخْلُوفٌ وَمِثْلُكَ يُعَدُّمُ
 فَتَوْشِكُ نَخْشَى نَشْرَهَا حِينَ تَنْظُمُ^(٧)
 حَنِينًا وَأَجْرَتْ عِبْرَةً حِينَ تَرْقُمُ^(٨)
 وَبَيْنَ الحِجَى والعِلْمِ وَالمَجْدِ مَا تَمُّ^(٩)
 فَذَلِكَ مِمَّا يَقْتَضِيهِ التَّكْرُمُ

(١) تتصرم : تتقطع .

(٢) الجيوب جمع الجيب : وهو من القميص الموضع المقور .

(٣) جنادله : جمع الجندل ، الصخر .

(٤) النازح : المتبعد عن داره .

(٥) العرمرم : الكثير الصاحب .

(٦) شرخ الشباب : أوله .

(٧) القوافي : القصائد من باب تسمية الجزء باسم الكل .

(٨) عبرة : دمة .

(٩) المذاكي : الخيل الحجي : العقل . الماتم : مكان الندب على الميت .

إذا ما دُفِعْنَا لِلبَلِيَّةِ مَرَّةً
 جرى قدرُ المولى بما شاءَ واستوى
 وليس لنا من مطمعٍ فاتَ نيلُهُ
 وما كان ما لا بُدَّ منه مؤخرًا
 وما الفرقُ في الحالين إلا هنيهةً
 ولم ننتفحِ بالحزن فالصبرُ أحزمُ
 لديه جزوعٌ في الأسي ومسلمٌ (١)
 إذا كان ما نبغيه ما ليس يُغنمُ
 يهونُ لديه الرزءُ وهو مُقدمٌ (٢)
 تمرُّ سريعاً والقضاءُ محتتمٌ

ج - في الوصف

الجماد الحى

قال يصف المحرك المائى الذى اخترعه يوسف إيلياس المهندس فى بيروت لما احتفل به فى محلة
 الجناح سنة ١٨٨٧ م .

عُجِبُ بالجناحِ وَقُلْ لليعملاتِ قفى
 وسرَّحِ الطَّرْفَ فى ما فيه من عجبِ
 هذى هى التحفةُ الغراءُ قد برزتُ
 محركٌ أبداً يعجرى الحراكُ بهِ
 هو الحياةُ بهِ يحيا الجمادُ فلو
 وَحَيَّهِ بلسانِ الشَّيْقِ الكَلِيفِ (٣)
 يلهو بهِ الصبُّ عمَّا فيه من شَغَفِ (٤)
 للنَّاظِرِينَ فأروتُ غُلَّةَ اللِّهْفِ (٥)
 على أتمِّ نظامٍ غيرِ مختلفِ
 يناطُ يوماً بقلبِ الحى لم يقفِ (٦)

(١) جزوع : فاقد الصبر . والأسى : الحزن .

(٢) الرزء : المصاب .

(٣) اليعملات : جمع اليعملة : الناقة السريعة . الشيق : المشتاق . الكلف : المغمم .

(٤) الصب : العاشق . الشغف : الحب الشديد .

(٥) برزت : ظهرت . الغلة : شدة العطش .

(٦) يناط : يربط ويعلق .

به انجلت قدرة الإنسان واتصحت
وأصبح الشرق من زهو يجر به
مزية الخلف الباقي على السلف
على المغارب ذيل الفخر والشرف

زهر الياسمين

وقال يصف زهر الياسمين :

انظر لزهري الياسمين وقد بدت
شبهته بقلائد من فضة
أوراقه في الروض كالغصن الندي
سقطت فصادتها سهام زمرد^(١)

الزهرة^٢

أولع الشيخ بعلم الفلك فشى به شوطاً محموداً وقد سره منظر الزهرة وهي معبود الأوائل فقال يناجها
ويتحدث إليها متعاضداً عما في أرضها من بشر :

قف بي نحى ربها أيها الحادي
قد خيمت باللوى الغربى ضاربة
فتلك أبياتها في عُدوة الوادي^(٣)
عليه أطناها من غير أوتاد^(٤)
ما ينقضى بين تأويب وإسآد^(٥)
في هودج من شعاع النور وقاد
صدت دلالاً فزادت غلة الصادي
يحجب البعد سهاها فإن قربت

(١) القلائد : جمع القلادة ، طوق من حجر ثمين يوضع في العنق . الزمرد : حجر كريم .

(٢) الزهرة : اسم لنجمة ، ويدعوها العامة نجمة الصباح ، عبدها الأوائل وتقدموا لها القرابين .
راجع وصفها ثراً في المختارات .

(٣) الحادي : المنشد وراء إبله . عدوة : منعطف .

(٤) اللوى : منعطف الرمل . أطناها : ما تشد إليه الحيام .

(٥) تأويب : رجوع . إسآد : سير الليل كله بلا تعريس أى إقامة في الليل .

يسارق الطرف عين الشمس منظرها
 حتى إذا هجعت في ليها ظفرت
 فنبئنا رعاك الله جارتنا
 قد انقطعنا فما إن بيننا صلة
 ولم يكن بيننا سد وقد ضربت
 ما إن ينالكُم للبرق منطلق
 وإنما رسلنا الأنوار حاكية
 تهدي لنا عنكم رمزاً تعود لكم
 يا ليت شعري هل تدرين موضعنا
 وهل رأوا ركبتنا النورى منطلقاً
 وهل أقاموا لنا مثل الذى رفعت
 فذى هياكلك الشما قد شخصت
 رأوك للحسن معبوداً وما وهموا
 فالشمس من دونها حلت بمرصاد
 منها العيون بلمح الميسم البادى^(١)
 بل أنت سوغ لنا من عهد ميلاد^(٢)
 ولا سبيل للملاح ولا حاد^(٣)
 أيدى الفضا دون لقيانا بأسداد
 ولا يقرب منكم سير منطاد^(٤)
 نار الصليب تبدت فوق أنجاد^(٥)
 بمثله بين إصدار وإيراد^(٦)
 وهل لديك رجال أهل أرصاد ؟
 فى ليهم بين تصويب وإصعاد
 آباؤنا لك من تكريم عباد
 هاماتها فى الذرى أمثال أطواد^(٧)
 فالحسن معبود عشاق وزهاد

(١) هجعت : نامت .

(٢) السوغ : الذى ولد على إثره ولم يولد بينهما .

(٣) الملاح : البحرى الذى يشتغل فى سفر البحر .

(٤) ما إن ينالكم : إن زائده ، أى ما ينالكم . المنطاد : مركب الهواء (Ballon) .

(٥) نار الصليب : أى النار التى توقد يوم عيد ارتفاع الصليب وهو ذكرى استرجاعه من

بلاد الفرس أيام هرقل ملك بزنطية .

(٦) الإصدار : الرجوع عن الماء . الإيراد : الذهاب إليه .

(٧) هاماتها : جمع هامة ، رأس . الذرى : جمع ذروة : قمة الجبل ، أى رأسه . أطواد :

جمع طود ، الجبل .

لعلَّ للأرض هذا الحظَّ. عندكمُ
وعَلَّكِ اليومَ خلَوْ من مفايسِدها
وأنتِ الفتيةُ لا تدرين مفسدةً
ضلَّ الجميعُ وتاهُوا في غوايتهمُ
وأصبحَ الزورُ مرفوعَ اللِّواءِ بهمُ
قامَ الخصامُ بما لا يعلمون له
شعبٌ تفاقم في الأجيالِ واضطربتْ
وَأنتها لو علمتمَّ دارَ إفسادِ
وإن نكن قد خلقنا خلقاً أنداداً^(١)
أينَ المفاسدُ من أخلاقِ أولادِ؟
فما اهتدى حاضرٌ منهم ولا بادِ^(٢)
وقائل الحقِّ موصوفاً. بِالْحَادِ
كُنْهًا وَلَمْ تَرَهُ أَبْصَارُ أَشْهَادِ
بهِ العداواتُ دهرًا بين أكبادِ

* * *

أما كفاكم بنى الإنسانِ شقوتكمُ
وما تُعانونَ من جُهدِ الحياةِ وقد
ومن تقلبِ أطوارِ الزمانِ بكمُ
ومن مراغمةِ الأقدارِ طاردةً
ومن مُزاولةِ الأرزاقِ بغيتها
ومن مكاييدِ الأدواءِ ساطيةً
فما لكم تسعدونَ الدهرَ بعضكمُ
وَأنتكمُ للمنايا جِدُّ رُوَادِ^(٣)
أَمَسْتُ كَوْقِرٍ ثَقِيلِ بَيْنَ أَكْتَادِ^(٤)
كأنما هو جرباءُ بِأَعْوَادِ
لكم كتيارِ يَمِّ حَوْلَ طَرَادِ^(٥)
تزاحمونَ بأقدامِ وأعضادِ
ومن نوازل لا تُحصى بتعدادِ
لكيِّدِ بعضٍ بهِ يا شرُّ إيسعادِ!

(١) الأنداد : ج ند : المساوي لك بكل شيء .

(٢) الحاضر : ساكن المدينة . البادى : ساكن البادية .

(٣) المنايا : ج منية ، الموت . الرواد : ج رائد ، المسافر ، وتطلق على الذين يزورون

الأقطار بقصد الاستكشاف .

(٤) الوقر : الحمل الثقيل الذى ينوء تحته حامله . أكتاد : ج كتد ، ما بين الكاهل إلى الظهر .

(٥) اليم : البحر . الطراد : آلة حربية بحرية تشبه السفينة .

وإنما أرضنا دارُ السَّلامِ لِمَنْ
أصلُّ بعد الكفى من سعى مُزادٍ
وإنا دارُ السَّلامِ لِمَنْ
وكلُّنا فوقها رهنُ الزَّوالِ فلا

د - فى الغزل

ما مرَّ ذكرك

ما من أديب إلا وتأخذه رعدة الحب فتحرك قلبه فيجرى ما ينبض به قلبه على أسلات لسانه شعراً ، وقد حرك شيخنا الحب فقال :

ما مرَّ ذكركَ خاطراً فى خاطرى
وتصبَّبتِ وجداً عليكِ نواظراً
بلغَ الهوى منىً فإنَّ أحبَّبتِ صلِّ
قسماً بِحُسنِكَ لَمْ أَصادفِ زاجراً
أوما كفاكَ مِنَ الذى لا قَبِيتهُ
وضننى يكادُ يشفُّ عن طىِّ الحشا
أخذتِ عيونكَ من فؤادى مؤثِّقاً
كُنْ كيف شئتِ تجدِ محبَّك مثلماً
عذبتِ قلبى بالصدودِ وإن يكنْ
إلاَّ استباحَ الشَّوقُ هَتَكَ سرائرى^(١)
باتتْ بليلٍ من جفائِكَ ساهراً^(٢)
أو لا فدَتِكَ حُشاشتى ونواظرى^(٣)
إلاَّ وحُسنِكَ كانَ عنه زاجرى^(٤)
ولهُ كَسانى الدُّلِّ بينَ معاشرى
حتىَّ خشيتُ بهِ افتِصاحَ ضمائرى^(٥)
وعلىَّ عهدُ هوالِكَ لستَ بغادرٍ^(٦)
تهوى على الحالينِ غيرِ مغايرِ
لكَ فيهِ بعضُ رضَى فدونكَ سائرى^(٧)

(١) السرائر : ج سريرة ، الضمير أو ما استتر فى الذهن .

(٢) وجداً : شوقاً . الجفاء : البعد .

(٣) الحشاشة : حبة القلب .

(٤) الزاجر : الوازع ، المانع .

(٥) الضنى : القم .

(٦) المؤثِّق : العهد .

(٧) الصدود : الامتناع والابتعاد .

وأضعتُ عمري بالدلالِ وحيداً إن صحَّ عندك مطمعٌ في الآخرِ
كشُرَّ القولِ بيننا وتحدُّثوا يا هاجري حاشاك أنك هاجري

٥ - السياسة

تنهوا واستفيقوا

نظمتها سنة ١٨٦٨م وكانت البلاد العربية بأسرها بقبضة العثمانيين وتحكمون بها وقد غشيها نساد إداري واجتماعي فتمنى الأحرار أن ينفصوا عنهم ذلك الدير الثقيل ، ونشرت هذه القصيدة سرّاً ، فكان لها صدى رددته رقة البلاد العربية مما حمل حكومة الآستانة أن تهتم بها فسمعت لمعرفة ناظمها فأخفقت ولم تهتد إليه :

تنبهوا واستفيقوا أيها العربُ فقد طمى الخطبُ حتى غاصت الركبُ^(١)
فيمَ التعلُّلُ بالآمالِ تحذعكمُ وأنتم بين راحاتِ القنا سلبُ^(٢)
الله أكبرُ ما هذا المنامُ فقد شكاكمُ المهْدُ واشتاقتكم التربُ^(٣)
كم تظلمون ولستم تشتمون وكم تستغضبون فلا يبدو لكم غضبُ
ألفتمُ الهونَ حتى صار عندكمُ طبعاً وبعضُ طباعِ المرءِ مكتسبُ
زفارتكمُ لطولِ الدُّلِّ نخوتكمُ فليس يؤلمكمُ خسفٌ ولا عطبُ^(٤)
لله صبركمُ لو أن صبركمُ في ملتقى الخيل حين الخيل تضطربُ
كم بين صبرٍ غدا للدُّلِّ مجتلباً وبين صبرٍ غدا للعزِّ يجتلبُ

(١) طمى : زاد وارتفع . الخطب : المنصيبة .

(٢) القنا : الرماح . سلب : مسلوبون وحققكم مضاع .

(٣) المهدي : سرير الطفل . اشتاقتكم الترب : اشتاقت إليكم المقابر .

(٤) انخوة : الشجاعة . خسف : ظلم .

فشمروا وانهضوا للأمر وابتدروا
لا تبتغوا بالمنى فوزاً لأنفسكم
خلوا التعصب عنكم واستوا عصباً
هذا الذى قدرى بالضعف قوتكم
وسلط الجور فى أقطاركم فعدت
وحكم العليج فيكم مع مهانتِه

* * *

بالله يا قومنا هبوا لشأنيكم
ألستم من سطوا فى الأرض واقتحموا
ومن أذلوا الملوك الصيّد فارتعدت
ومن بنوا لصروح العزّ أعمدة
فمالككم ويحكم أصبحتم هملاً
لا دولة لكم يشتد أزركم
وليس من حرمة أو رحمة لكم

فكم تناديكم الأشعار والخطب
شرفاً وغرباً وعزواً أيما ذهبوا
وزلزل الأرض مماتحتها الرهب^(٥)
تهوى الصواعق عنها وهى تنقلب^(٦)
ووجه عزكم بالهون منقلب^(٧)
بها ولا ناصر للخطب ينتدب
تحنو عليكم إذ اعضتكم الثوب

(١) ضنت : بخلت . الحقب : جمع الحقبة ، المدة من الزمن ويراد بها السنة تجزأ .

(٢) عصباً : جماعة . الوثام : الحب .

(٣) منشعب : متفخ .

(٤) العليج : يراد به الأتراك .

(٥) الرهب : الخوف .

(٦) الصروح : جمع الصرح ، البناء الفخم .

(٧) الهمل من الحيوان ، المهمل .

٢ - إبراهيم اليازجي الناقد

١ - دستور الأدب

سخف وأسف

لم يكن الانتقاد في عصر المترجم له انتقاداً متزنأً يتحرى الحقائق ، بل كان مهاترة وسباباً وقدحاً أو مدحاً وتعظيماً . وما كان الناقد يفرض على فكر المنقود فيظهره بحسناته أو سيئاته . فجاء الشيخ يشق طريقاً جديداً في النقد ، يتنكب فيه عن هجر الكلام الداعى إلى التناذب والتناظر والتقاطع والتدابير ويجر المرء إلى هبوط منزلته وإخلاقه ديباجة وجهه . قال ينتقد بعض الشعراء والأدباء :

انتهت إلينا نسخة من كراسة تحت عنوان (١) . . . تشتمل على مجموع القصائد التي نظمت لحضرة الوجيه الأمثل . . . تهنته له برتبة الوزارة السنية جمعها وطبعها حضرة الأديب . . . وقد تصفحنا بعضها على قدر ما وسعه وقتنا الضيق وفسح لنا تراكم الأشغال ، فرأينا فيها من غرائب النظم ، ما استوقفنا وإيم الله (٢) بين الحيرة والأسف لما تمثّل لنا من تخلف صناعة الأدب في بلادنا السورية مع ما نعلم فيها من زيادة وسائل انتشار العلم وكثرة المدارس والدارسين ، وتمنينا أن ألا يكون ذلك عن تراجع في الفطرة ، وانتكاس (٣) في استعداد السُلالة الشرقية التي طالما لمعت أشعة ذكائها في العصور الغواير .

لاجرم أن مثل هذا لمياً تنقبض له صدور الآمال ، ويكفهر (٤) له (٥) حياً الاستقبال ، ومما يسجل على الشرقى بهام الانحطاط والاضمحلال ، لولا أننا نزل ن شاهد من نجابة (٥) مواطنينا الأعزاء ونوابغ عقولهم ، حينما انقلبوا وفي أى

(١) أغفلنا اسم الكراسة واسم جامعها عمداً .

(٢) إيم الله : اسم وضع للقسم .

(٣) انتكس المريض : إذا عاودته العلة بعد النقه والإبلال ، والمراد هنا ، التفهقر .

(٤) يكفهر : يظلم ، والمراد هنا يعبس .

(٥) نجابة : ذكاء .

مأخذٍ شرعوا، ما يؤيدُ أن شعلة ذلك الذكاء لم تبرحُ تتوقد في فِطْرهم الشفافة وما استبنأ منه أن ما ظهر لنا من ذلك التخلّف ، لم يكن عن نقصٍ في الغرائزِ ولا فتور في الذكاء ، وإنّما هو من نقصِ العلمِ وسوءِ التلقينِ وفتقِدِ المنبّهين على العثراتِ والمسدّدين في طريقِ العملِ ، ممّا سَوَّلَ^(١) للقاصر أن يتناول إلى ما يفوتُ يده من الغاياتِ ، وأراه طريقَ الفضلِ سهلاً ، فوطئتهُ وهو لا يدري ما أمامه من المهاوى والعقباتِ ، فكثُر المتطفلون^(٢) على موائد العلمِ ، والمجترُّون على مقاماتِ الشعرِ والإنشاءِ ، على حين لا وازعَ يترعُ^(٣) ولا هادى يدعو فيتبع .

وما كان أحوج البلاد إلى مسيطرين على أقلام أصحاب الجرائدِ السياسيّةِ وصُحفِ الأخبارِ ، لأنّه إذا خيف من تلك أن تنصُرَ بالمصلحةِ الوطنيّةِ من الجهةِ السياسيّةِ ، فإنّ هذه ولا جرمَ تنصُرُ بها من الجهةِ الأدبيّةِ ، بما تؤدّي إليه من فسادِ اللغةِ التي هي أعظمُ أركانِ الوطنيّةِ ، وأهمُ روابطِ الجامعةِ الأميّةِ^(٤) . ومعلومٌ أنّ الشعرَ من أعلى طبقاتِ الكلامِ وأبعدها غايةً ، لما يقتضيه من شرفِ الألفاظِ ونباهةِ المعاني ، وسلامةِ الذوقِ والمبالغةِ في التنقيحِ والتهديبِ ، فابتدأه على ألسنةِ غيرِ أهله ، ممّا يزرى به ويُنسِدُ رونقهُ ويسقطُ مزيته ، بل ربّما أفضى إلى دفنِ كثيرٍ من جواهره في صدور أربابه ، لأنّه إذا أصبحَ متداولاً بين أيدي العامةِ وابتذله مَنْ لا يحسنه ، أنيفَ^(٥) المحيدون له من انتحاله ، وتجنّفى كبراء أهلِ القولِ عن نزولِ كنفه .

(١) سول : زين ، سهل .

(٢) المتطفلون : من تطفل إذا صار طفلياً نسبة إلى طفيل وهو رجل من العرب كان يأتي اللوام من غير أن يدعى إليها .

(٣) الوازع : الزاجر ، المانع . يزع : يزعج يمنع .

(٤) الأمية : نسبة إلى الأمة .

(٥) أنف : امتنع حمية واستكباراً .

وهذا ولا ريبَ أحدٌ أسبابِ عقمِ الشعرِ في هذى الأيَّامِ وانصرافِ الرِّغبةِ عنه إلى النثر الذي لا يجلتى في حلبتيه (١) إلاّ كلٌّ من أعطته البلاغة قيادها (٢) وملاكته الفصاحة عنانها (٣) ولذلك ترى المتعرّضين للشعرِ أكثرَ من المتعرّضين للنثر حتّى في العصرِ الأوّلِ ، وأيّامَ كانت الفصاحة شائعة بين طبقات المتأدبين على العموم . ولقد مرّ بنا كثيرٌ من ركيك الشعرِ وساقط القولِ ، ولا سيما في هذى السنين المتأخرة ، التي لم يبق فيها من عرف قاعدة من قواعد الصرف ، أو قرأ ديواناً من دواوين الشعراء إلاّ تصدّى للنظمِ وطيرَ قصائده في البلاد .

إلاّ أنّ جُلَّ ما كُننا ننكره على أولئك الشعراء ، خلواً كلامهم من مبتكر المعانى وجليب الأغراض . وبعد ألفاظهم عن مقام الجزالة العربية التي هي حليّة الشعر ورونقه . ولم نكن نتوهم أن نرى من الشعرِ ، ما يبلغ أن ينتظم في سلك اللّغو (٤) ويعتدّ ضرباً من التخليط والمهذبان ، ممّا لم نر له مثيلاً إلاّ في كلام بعض الجرائد عندنا ، ممّا سبقت لنا الإشارة إليه في غير هذا الموضع .

لا جرمَ أن هذا من فاحش التأخّرِ بل هو نهاية السقوط والانحطاط ؛ وأولا أن تكون تلك القصائد مطبوعة متداولة بين أيدي المطالعين ، لما كُننا نؤثر (٥) إلاّ سترها على أربابها تفادياً من هذى المعرّة (٦) الشنعاء .

(١) الحلبة : الميدان تتسابق فيه الخيول .

(٢) قيادها : من قياد الدابة ، رسنها .

(٣) العنان : سير اللجام للفريس وهي وما قبلها استعارة بجامع المقدرة .

(٤) اللغو : ما لا يعتد به من كلام وغيره .

(٥) نؤثر : نفضل .

(٦) المعرّة : العار ، العيب .

وأما ما هناك من أغلاط اللغة والنحو والوزن والتقفية فأمرٌ يطول الكلامُ عليه ، وليس من قصدنا في هذا الموضوع ، وقد امتدَّ بنا نفس الكلام إلى ما لا يحتمله حالُ هذى القصائد ، ولا تتسع صفحات هذى المحلَّة (الضياء) للمزيد عليه .

والله يعلم أن ليس غرضنا فيما أوردناه تثبيط^(١) أقلام أولئك الأدباء وأمثالهم عن الجرى في هذا المضمار ، فإنه ليسرنا أن نرى في قومنا ، من يهتمُّ بالأدب واللغة ويشغل بالشعرِ والإنشاء . وهو ولا شك ممَّا تفخر به البلاد ، ويحيا به تمدُّن الأمة . ولكن لا أقلَّ من أن يكون ما يأتون به صحيح التَّركيب مفهوماً المعنى ، ولا نطالبهم بالفائق ولا الجيِّد ، وإلاَّ فقد كانت الأميَّة أجملَ وأسترَ . وإنَّما الذي نتوخَّاه هنا ، تنبيههم إلى التثبُّت فيما يكتبون ، وألا يعجلوا إلى نشر ما يبدر من قرائحهم ، قبلَ تنقيحِهِ وعرضِهِ على من يُقيم من أوده^(٢) أو ينبئه إلى ما فيه من خطأٍ أو لحن^(٣) وإلاَّ فلا أقلَّ من أن يُطلع الواحدُ منهم صاحبه ، على ما يجود به خاطره ، فإنَّ للمرء في شعرٍ غيره ، نظرة غير نظرته في شعرٍ نفسه ، وإن لم يكن هذا ولا ذلك ، فليطو ما ينظمه عن نفسه أياماً حتى يتناساه ، ثمَّ يعاوده ، فإنه حينئذٍ يكون نظره فيه كنظر الأجنبيِّ ، ويتنبه فيه لأشياء لم يتنبه لها حال النظر .

ونمسكُ عنان القلم على هذا القدر ، تقادياً من الملل . والله المسؤول أن يسدِّدنا^(٤) جميعاً بهديه ، وهو حسبنا .

(١) تثبيط : تعويق .

(٢) الأود : الاعوجاج .

(٣) اللحن : الخطأ في الإعراب والبناء .

(٤) يسدِّدنا : يرشدنا إلى السداد وهو الصواب والاستقامة .

ديوان المتنبي

بعد أن شرح الشيخ ديوان المتنبي نظر في مجمل شعره، فخرج منه بالبحث الآتي وفيه من أدب النقد ما فيه :

ومن تفقّد أوائل ديوانه ، رآها كذلك أولاً تبعاً لمقامات الكلام ومراتب المخاطبين ، وكلما أمعن فيها وراء ذلك ، وجد هذا التلوّن فيه أخفى آثاراً وأقلّ عروصاً^(١) ، إلى أن استقلّت طريقه وأقلع عن موقف التقليد. إلاّ أنه لم يزل في ملكته شيء ، من ذلك القديم ، أشبه بعداد^(٢) السليم^(٣) يعاوده حيث يحتفل ، ويقصد الإغراب والمبالغة في الإحسان ، فيأتي كلامه معقّداً بآدى التكلف . ولهذا ترى شعره في أبنى العشائر ، مثلاً ، أسهل أسلوباً وأظهر أغراضاً^(٤) من بعض شعره في سيف الدولة^(٥) ، مع أنه ، ولا شك ، كان أيام اتصاله بسيف الدولة أغزر مادّةً ، وأقدر على التصرّف بأزمنة^(٦) الكلام . وانظر إلى قصيدته في أبنى العشائر التي أولها : « أتراها لكثرة العشاقِ » وقابلها ، مع شعره في سيف الدولة ، بالقصيدة التي أولها : « رويدك أيها الملك الجليل » مع تداني^(٧) العهد بين القصيدتين ، ثم انظر إلى قوله فيه : « أيدري ما أراك من يريبُ » وقوله : « القلب أعلم يا عدول ببدائه » وقوله في رثاء تغلب بن حمدان : « ما سدّكت علةُ مجرودٍ » وقابل هذه كلها بقوله : « أنا لا نهي إن كنتُ وقت اللوائمِ »

(١) أقلّ عروصاً : أقلّ ظهوراً .

(٢) العداد : احتياج وجع اللديغ بعد سنة .

(٣) السليم : اللديغ . ويقال للملذوغ تيمناً بشقائه .

(٤) أظهر أغراضاً : أوضح قصداً .

(٥) سيف الدولة الحمداني أمير حلب ومدوح المتشبي .

(٦) أزمنة : ج زمام وهو رسن الدابة واستعير للتبض على مفردات اللغة وكلهما .

(٧) تداني : قرب .

هي قبل شعره في أبي العشائر . وإن شئت فتجاوزها إلى ما قبل ذلك وقابلها بقوله : « لقد حازني وجدٌ بمن حازهُ بَعْدُ » وأختها وقوله : « أطاعن خيلا من فوارسها الدهرُ » وقوله : « قد علمَ البينَ منّا البينَ أجفانا » إلى ما في طبقة هذه القصائد مما نظمه قبل ذلك بزمانٍ طويل ، فإنك . ولا جرم . ترى هذه أفصح نظماً وأحسن ديباجةً وأبدى أغراضاً . على دقةٍ في المعاني وابتكارٍ قد لا تجدهما في تلك . وذلك أنه . عند اتصاله بسيف الدولة . وقف منه ببابٍ حافلٍ بالشعراء والعلماء ، على ما هو مشهورٌ من حال سيف الدولة ورغبته في الأدب ، حتى يقال إنه اجتمع ببابه منهم ما لم يجتمع بباب أحدٍ من الملوك بعد الخلفاء . وكان سيف الدولة نفسه من الشعراء المجيدين ، وكان يتصدى (١) للاقتراح على المتنبي والتقد عليه أحياناً بما ذكرنا بعضاً منه في هذا الشرح . وكذلك كان أكثر بني حمدان ؛ وقد ذكر منهم الثعالبي عدةً وافرة أورد لهم شعراً فائقاً ، وفي جملتهم أبو فراس ، وهو في بعض شعره أشعر من المتنبي . وكان المتنبي يتحاماه ويتحرّز من نقده . وقد نقلنا في الشرح عند رواية قصيدته التي أولها « واحرّ قلباه » ما كان من مناقشة أبي فراس له ، والمذكور لم يكن للمتنبي بدٌّ من حشد القريحة في مدائح سيف الدولة ، والإكثار من التحري والتنتطس (٢) في ألفاظه ومعانيه ، والإمعان في الاحتفال إلى ما وراء طبعه ، حتى تنقلب قريحته صنعةً وبادرتُه تكلفاً . ثم إذا انتقلت إلى شعره في كافور ، وجدته قد عاد إلى السهولة والرشاقة ، فأشبه شعره في أبي العشائر ومن قبله . وشعره في ابن العميد متأخرٌ عن شعره في كافور ، لكنه أشبه بشعره في سيف الدولة ، لأن ابن العميد كان من مشاهير علماء الأدب وأمراء النقد ، وله على

(١) يتصدى : يتعرض .

(٢) التنتطس : التألق في الكلام .

المتنبى مآخذ ذكرنا ما تيسر منها في محله . أما شعره في عضد الدواة فأنزل رتبة من ذلك كله ؛ لأنه كان يرسل الكلام فيه من فضل القريحة ، لقلّة المراحمين والنقاد ، فلم يكن يتوخى الاحتفال ولا الاختراع إلا ما ساقته القريحة عفواً . ولكنه لما نظم فيه أرجوزته التي أولها « ما أجدر الأيام والليالي » عاد إلى دأبه (١) الأول من الإغراب (٢) والتكلف ، لأنه كان في أراجيزه يقصد محاكاة البدويات (٣) ؛ ولذلك ترى كل ما له من هذا النوع معقداً جافى اللفظ والتراكيب ، لا يشبه سائر شعره ، ولا عليه شيء من طلاوته وانسجامه .

على أنى لا أقول إن كل ما استعجم من شعر المتنبى وخفى سره يكون سبيله ما ذكر ، بل إذا تصفحت شعر كل شاعر لم تستغن في بعضه عن قلدح زنا الرويّة وإعمال النظر في استبانة المقصود منه لاستعارة غامضة في البيت ، أو كناية بعيدة ، أو إيجاز لا يصرح معه بتمام القالب اللفظي ، أو إشارة إلى المراد من طرف خفي . على أن أغراض الشعر في الغالب تكون أخفى من أغراض النثر ، وأبعد تناولاً . لانتزاع الكثير منها من الصور الخالية (٤) والتأثيل الوهمية ، ولكثرة ما يعرض فيه من المجاز ، على تفاوت (٥) مسافته من الحقيقة ، فضلاً عما للشعر من المقامات الحرجة التي تضطر الشاعر تارة إلى إحالة الكلام عن وجهه ، لنزوله به على حكم الوزن والقافية .

(١) الدأب : العادة والشأن .

(٢) الإغراب : الإتيان بالغريب من ضروب الكلام ، أى عويصه .

(٣) البدويات : أى الأراجيز البدوية .

(٤) الخالية : نسبة إلى الخال ، وهو الخيلة المصورة للفكر .

(٥) تفاوت : تباعد .

ومعلوم " ما كان للمتنبى من سعة التصرف في المعاني ، والاقتدار على الإبداع ^(١) والتبسط في جميع أساليب الشعر وفنونه ، والإحاطة بأغراض الحديث وشجونه ^(٢) بحيث أنه قلما وقعت واقعة " ، إلا ذكرت للمتنبى بيتاً تتمثل به فيها ، حتى كأنه كان ينطق بالسنة الحدثنان ، ويتكلم بخاطر كل إنسان ، ويخطب في كل شأن فلم يكن من العجيب ، مع كثرة معانيه وازدحامها في خاطره ، ومع تبخُّره في اللغة وطول باعِه في أساليب الحجاز ، أن يقع في بعض كلامه إبهام لا يظهر معه المقصود ، إلا أنه ربما أغرب في ذلك بأن يُوعِل في طرق الحجاز ، حتى يفوت السامع غرضه ، أو يتفق له المعنى الكبير يحاول إدماجه في اللفظ اليسير ، فيبالغ في الإيجاز ويضيق اللفظ على المعنى ، حتى لا يبقى للنظر إليه مجاز ولا للفكر فيه مجال . فإذا انتهى الشارح إلى مثل ذلك ، لم يتأت له فهم المعنى وتمثيله ، إلا بالتأويل والتبديل والزيادة على لفظ البيت . وربما اضطرَّ إلى الزيادة على المعنى أيضاً بما يتم صورته ويسدُّ خصاصه ^(٣) وناهيك ما هناك من سعة وجوه الاحتمال ، وضيق مسافة الإشكال ، مما تحار عنده بصائر النقاد ، ولا يُقطع في جنبه بمراد . ولعل هذا هو المقصود في قول من يتنسب خفاء معانيه ^(٤) إلى الدقة والابتكار ^(٥) . لكنك إذا تحققت ، وجدت ذلك كله غير خارج عما سبق الكلام عليه من الإبهام في صور التعبير ، ووقوع اللفظ من دون مرعى ^(٦) المعنى .

(١) الإبداع : الإيجاد .

(٢) شجون الحديث : أغراضه المتنوعة .

(٣) الخصاص : اللحل .

(٤) أى معانيه البعيدة غور الفهم .

(٥) الابتكار : الإتيان بالشيء الجديد .

(٦) مرعى المعنى : المقصد الذى يرمى إليه المعنى .

وتبين للشيخ غموض في شعر المتنبي عند ما انتدب نفسه لإتمام الشرح الذي كان قد بدأه أبوه الشيخ ناصيف فأعمل الفكر في الكشف عن هذا الغموض فوفق إلى غرضه غاية التوفيق ، كما يتضح لنا ذلك من قوله :

وإنما الغرض من هذا الفصل الكلام على شعره من حيث هو كلامٌ تراد منه المطابقة بين المسموع والمفهوم ، فأذكر ما له من إجادةٍ أو تقصيرٍ في استخدام الألفاظ ، من حيث هي قوالب للمعاني ، مع بيان الحلد الذي جرى إليه في ذلك ، ومنزلة شعره من هذا الوجه مما يرجع في الأكثر إلى أدب الكاتب وصناعة اللغوي ، ويكون مرميً لنظر علماء المعاني وأصحاب الترسُّل في صياغة اللفظ وتقديره على المعنى . وهذا مما ألمَّ^(١) به بعض المتكلمين على ديوانه ، إلا أنهم ، على الغالب ، يشيرون إليه من جانب البحث ، ولم أجده من تفرغ لإشباع الكلام فيه ، مع أنه لم يشرح هذا الديوان شارحٌ إلاَّ خبط في دياجير^(٢) لفظه وهام في تبيته تعبيره ، فأخذ بين تقدير وتأويل وتخريجٍ وتعليل ، مما يقضى بالعناء الثقيل ، إلى أن يفرغ منه وفي نفسه منه أشياء . والعجب أن كثيراً من خاصة الناس ، فضلاً عن عامتهم ، ممن يذهبون إلى تفضيل المتنبي على سائر الشعراء ، يرون أنه إنما نال هذه المنزلة وانفرد بالمزلة على غيره ، لخفاء معانيه وبعد مأتاها ، وكثرة ما يحتمل كلامه من وجوه التفسير وضروب التأويل ، وأنه بهذا فضل الشعراء وأشير إليه من بينهم بالتبريز^(٣) والسبق ؛ حتى إن الواحدى ، رحمه الله ، مع وفرة فضله وطول باعه في صناعة الأدب وسعة علمه بمذاهب الشعر ، يقول في خطبة شرحه في الكلام على المتنبي ما نصه :

« على أنه كان صاحب معانٍ مخترعةٍ بديعةٍ ، ولطائفٍ أبقارٍ منها لم يسبق

(١) ألم بالشئ : فهمه وعرفه .

(٢) الدياجير : ج ديحور ، ظلمة ، والمراد غريب اللفظ وعويصه .

(٣) التبريز : التفوق .

إليها ، أنيقة ، ولهذا خفيت معانيه على أكثر من روى شعره من أكابر الفضلاء والأئمة والعلماء ، حتى الفحول منهم والنجباء^(١) : كالقاضي أبي الحسن الجرجاني ، وأبي الفتح عثمان بن جني ، وأبي العلاء المعري ، وأبي علي بن فُوزَجَة البرُوجردِي ، رحمهم الله تعالى ، وهؤلاء كانوا من فحول العلماء ، وتكلموا في معاني شعره ، مما اخترعه وانفرد بالإعراب فيه ، وأبدعه ، وأصابوا في كثير من ذلك ، وخنفي عليهم بعضه فلم يبن لهم غرضه المقصود ، لبعد مرماه وامتداد مداه » . . . إلى آخر ما ذكره في هذا المعنى وأشيع القول فيه . وما أرى هذا الكلام منه إلاّ صدّي للمشهور وحكاية للمتداول ، وإنما سبق السماع فيه الاختبار . وغلب التقليد على صادق الاعتبار ، وإلاّ فليس ما ذكره من دقة معانيه واختراعها هو العلة في خفاء تلك المعاني ، بدليل أنك متى شرحت معنى البيت بما هو أبين من لفظه ، وبعبارة أخرى : متى صورته باللفظ الذي حقّه أن يصور به ، ذهب خفاؤه مهما كان دقيقاً ، وأشربه الفهم على غير كلفة ولا عناء . والمعاني الشعرية ليست من قبيل الأسرار الصوفية^(٢) ، أو القضايا التعليمية التي تقتضى دقة نظر وجهد ذهن في تفهّمها وإنما هي معاني طبيعية تدركها البداهة بأدنى رمز . والاختراع ، من حيث هو ، لا يقتضى الخفاء ، وإلاّ لحنى أكثر شعر المتقدمين ممن سبقوا إلى ابتكار المعاني ، مع أنك لا تكاد ترى في كلامهم ما غاص في الإبهام ، وحسرت^(٣) من دونه الأفهام . إلى الحدّ الذي تراه في بعض شعر المتنبي ، بل متى كان الكلام مسفرغاً في قوالب من الوضع لا يخرج عنها . جارياً على سنة^(٤)

(١) النجباء جمع : النجيب ، الذكي .

(٢) الأسرار الصوفية : التي تقول على غير ظاهر لفظها .

(٣) حسرت : تعبت .

(٤) السنة : الطريقة .

من التعبير لا يتعدّأها ؛ وكانت تلك القوالب وهذه السنّة معروفةً عند السامع ،
فقلما يتخلف المعنى عن اللفظ إلا بمقدار ما تحيط به الرويّة ، ويتناولهُ الذهن .
ولكن ما ذُكر للمتنبي ، من خفاء المعاني وغموضها ، واردةٌ على الغالب من
قبيل الإبهام في اللفظ ، والتعمية^(١) في صور التراكيب واللباس المعنى غير
ثوبه الذي تظهر به تقاطيعه ، وإنزاله في غير منزله الذي يُقرع عليه بابه ، وهي
طريقة له اختطّها لنفسه وأكثر من العمل^(٢) لها والنزوع^(٣) إليها . وإذا اعتبرت
جملة شعره وجدت ذلك لا يختصّ منه بمواضع الدقة والاختراع ، بل كثيراً
ما ترى الأمر ، بعد التحقيق ، ناطقاً بالخلاف واقعاً على العكس ؛ فإنك إذا
تفقدت أبياته من هذا الضرب ، وعانيت استخراج ما فيها ، إلى أن يستقيم
لك وجهٌ من الأوجه التي يحتملها ، لا تكاد ترى وراء ذلك كبير أمرٍ ، بل قلّ
أن ترى له بيتاً قد خفي سره وبعده مغزاه إلاّ وهو على الأكثر من ساقط شعره
ومبتذل معانيه ، وكأنه يحاول أن يخرجهُ إلى الإغراب^(٤) ، وشتان بين الإغراب
اللفظي والإغراب المعنوي . وربما كان المعنى ، من مثل ذلك ، مسبوقاً فيحاول
أن يبعد به عن أصله ويغيّر ديباجته بغير لونها فيفسد عليه وكثيراً ما يقع له ذلك
من استعمال اللفظ في غير موضع استعماله ، أو حذف شيء في غير مواطن
الحذف ، أو تشويش التركيب بالتقديم والتأخير فيما حقّه العكس ، أو زيادة
حشو^(٥) يفرّق بين أجزاء المعنى . ولذلك فإنك ترى أكثر هذه النظائر في شعره
قد ظهر عليها أثر الصنعة ، وتجاوزها التكلّف والتعقّد ، حتى تخرج عن
سنن الفصاحة وطريق البدهاة إلى ما يُدخلها في الركاكة ، ويميل بها إلى

(١) التعمية : عدم الوضوح .

(٢) النزوع : الميل .

(٣) الإغراب : الغموض .

(٤) الحشو : الكلام الذي لا معنى له في الجملة .

اللغو والخطأ . وهذه الوجوه وأشباهاها هي مورد أكثر ما يُرى في شعره من تلون^(١) الاحتمالات ، واختلاف مذاهب التأويل . وأنا أورد لك ههنا بعضاً من الأمثلة على ذلك ليُعتبر بها غيرها مما يُرى في سائر الديوان ، ثم أورد بعضاً مما جرى به على الضدّ من ذلك ليتبين موقع كلّ من الطرفين بصاحبه ، كما قال : وبضدّها تتبين الأشياء . فمن تلك الأمثلة قوله :

ففي ألف جزء رأيه في زمانه أقلُّ جزىء بعضه الرأى أجمعُ

وقد ركب في هذا البيت ، من التقديم والتأخير والحذف والإيهام ، ما لا يباح مثله في أساليب الكلام ، حتى إنك إذا حلّلت تركيبه النحويّ ، وجدته باقياً على غموضه ، ولا يظهر لك الغرض منه إلا بعد إطالة النظر وإعنات الرويّة . وصورته بعد الحلّ : هو فتى رأيه في زمانه ألف جزء ، أقلّ جزء منها ، بعضه الرأى أجمع . فتأملهُ . وإنما ورد عايه ذلك من قبيل ما فيه من تداخل المعنى ، وطول سلسلة الأجزاء بسرد أربعة ابتداءات فيه قد أخذ بعضها برقاب بعض ، وصارت كالشيء الواحد ، وهذا مما لم ينبته عليه علماء الداني . وحيثنذ فلا بدّ للشارح ، مع تأويل ما فيه من الحجاز والكشف عن المبهم^(٢) ، من تفصيل المعنى وتقطيع أجزائه ، بأن يقال : هو فتى ، لو اعتبِير رأيه في أحوال زمانه ألف جزء ، لكان أقلّ جزء من هذه الأجزاء ، يعادل جزءاً منه كل ما عند الناس من الرأى وحاصل ما فيه : أن الممدوح أعلم الناس بأحوال الدهر . وأين هذا المعنى من هذه الألفاظ وما ركبه فيها من المعازلة والتكلف والتعسف^(٣) وكدّ ذهن

(١) تلون الاحتمالات : تنوع الأغراض والمقاصد .

(٢) المبهم : الغامض .

(٣) التعسف في الكلام : أخذه على غير هداية .

السامع بتتبع قواعد النحو والحجاز ، والارتباك في حساب طويل لا طائل تحته ، حتى يستخرج منه هذا المعنى المبتذل (١) .

٣- إبراهيم اليازجي العالم

١- في الفلك

القمر

أولع الشيخ بعلم الفلك فدرسه دراسة صحيحة وجرّت له مراسلات مع فلاسفة العالم الفلكي الفرنسي وهذا ممخّج ما كتبه :

لا جرم أن أول ما يَبْدَهُ (٢) الناظر من مرأى القمر ، وهو في أوان البدر ، وما حواليه ، أنه يراه على خلقة وجه الإنسان ، فيه العينان ، والحاجبان ، والأنف ، والفم ، وذلك بما يتخلل سطحه من المسحو ، أي السواد المنتشر على وجهه ، بحيث يتبادر منه إلى الخيال هذه الهيئة الغريبة فهو في ذلك على حدّ ما يُتخيّل أحياناً في قطع الغيم المتراكمة (٣) ، من هيئات الأناسي (٤) والدواب وغيرها ، بما يعرض لها من اختلاف الأشكال وما يتخللها من الظلال في جنب ما يقع عليها من ضوء الشمس . وهذا المنظر ، في القمر ، يستمرّ من لدن طلوعه من المشرق حتى يبلغ الزوال ؛ فإذا مال بعد ذلك وانقلب إلى جهة المغرب ، تبدّل منظره ، واستحال إلى صورة رجل قائم على ساقيه ، وقد مدّ ذراعيه إلى الأمام ، كأنه يدافع بهما . إلا أن كل ذلك إنما يكون في نظر العين المجردة ؛

(١) المبتذل : المنحط عن رتبة الفصاحة .

(٢) يديه : يقاقي .

(٣) المتراكمة : المتكدس بعضها فوق بعض .

(٤) الأناسي : الناس .

فإذا نظر إليه، ولو بمنظارٍ ضعيفٍ ، انتسخ ذلك بجملته ، ولم يبقَ له أثر .
ثم إن هذا المحو^(١) ، كما كان سبب تضليلٍ للأُمم الأولى ومن بقى على
شاكلتها ليومنا هذا من العامة ، فقد كان محلَّ حَيِّرةٍ للعلماء وأهل البحث
منهم . وقد اختلفوا في أمره اختلافًا بعيداً ، وافترقوا في ماهيته^(٢) على مذاهب
نورد بعضها تفكهاةً للقراء . فمنهم من ذهب إلى أن ذلك ناشئٌ عن شكل
القمر وخلقه ، إذ هو مخلوقٌ على هيئة وجه الإنسان ، على نحو ما تقوله العامة ؛
فهو ، عند هؤلاء القائلين ، تمثالُ رأس ضخمٍ بمنزلة رأس أبي الهول مثلاً
وزعم آخرون أنه شبَّحُ ما ينطبع فيه من السُّفليات من الجبال والبحار ، يعنون
ما في الأرض من ذلك ، وهذا مبنئٌ على أن القمر جِرمٌ صقيل كالمرآة ،
بدليل عكسه لضوء الشمس . وقال غيرهم : إنه السواد الكائن في الوجه الآخر
منه ، أي النصف المظلم الذي لا يقع عليه ضوء الشمس ، وهو قول من يزعمُ
أن الكواكب أجسامٌ شفافة . وهناك مذاهب أخرى ، لا تقلُّ غرابةً عن هذه ،
كانوا يقولون فيها بالحدس^(٣) ، وبينوها على قواعد فلسفة ذلك العصر، مما لا محلَّ
للإفاضة فيه في هذا الموضوع . والصحيح ، وهو الذي يُشاهد بالآلات المعظمة ،
أن بعضه لون الظل الذي تلقيه جباله على وهاده وبسائطه ، وأكثر ما يكون ذلك
وهو في أحد التربيعةين وما إليهما ، لوقوع شعاع الشمس عليه حيثئذ منحرفاً ؛
وبعض الآخر لون صحاريه ، وما يتخلل جباله من الأتربة والرمال وبقايا
الخلق الدائر^(٤) . وأما في أوان البدر الذي يكون فيه صفحته^(٥) المواجه لنا

(١) المحو : غياب قسم من القمر .

(٢) ماهيته : أصله ونوعه .

(٣) الحدس : التخمين والظن .

(٤) الدائر : اليال .

(٥) صفحه : جانبه ووجهه الظاهر .

مقابلاً للشمس، وحين يكون ظلّ جباله مجزوباً عنّا بقيمته تلك الجبال أنفسها، فلا كلام في أنه لون تلك الأتربة .

أما شكل القمر ، فالظاهر لنا أنه كُرَوِي (١) على الجملة ، إلاّ أن الذى يستقبلنا منه ، إنما هو أحد صَفْحَيْهِ دون الآخر، إذ هو يوجّه إلى الأرض جهةً واحدةً أبداً، كما يظهر ذلك بمراقبة تحوّه ، وتتبعه من أول الشهر إلى آخره .
وأما الجهة الأخرى فلا يكاد يُرى منها إلاّ الشيء النزر من أطرافها لأسباب ليس هذا موضع بيانها ، ولذلك لا يُعلم شكله من تلك الناحية ، وبالتالي لا يُعلم قُطْرُهُ (٢) المسامت (٣) لخط النظر . قالوا : وعلّة ذلك قوّة جذب الأرض له وممانعتها لإياه من الدوران على نفسه إلا في القدر الذى يدور به أحد وجهيه حول الأرض ، فتكون له حول نفسه دورةٌ إضافية يُتمُّها مرةً في الشهر عند تمام دورته حول الأرض . على أنه قدرنى أحد أقمار المُشترى ، وهو أقربها منه ، مستطيلاً من القُطر القائم على السيار ، فهو أشبه بهيئة البيضة ، وهو أيضاً لا يوجّه إلى السيار إلاّ وجهاً واحداً . فغير بعيد أن يكون قمرنا كذلك ، ويكون ما ذكر هو العلة في وحدة اتجاهه إلى الأرض .

ولما كان القمر يدور حول الأرض ، ويدور معها حول الشمس ، لزم بالضرورة أن يكون القمر تارةً بيننا وبين الشمس ، وهو أوّان المحاق، فلا تتأتى لنا فيه رؤيته ، إذ يكون الوجه المستنير منه إلى الشمس ، والوجه المظلم إلى الأرض . وتكون الأرض تارةً بينه وبين الشمس ، وهو أوّان البدر ، وحينئذٍ نرى كل سطحه المستنير لوقوعه في استقبال الشمس . وتارةً تكون الأرض والقمر متحاذيين على بعدٍ واحدٍ من الشمس ، وهو أوّان التربيع ، فنرى نصف السطح

(١) كروي : بشكل دائرة .

(٢) القُطر : الخط المستقيم الذى يقم الدائرة ومحيطها .

(٣) المسامت : المساوى باتجاه .

الموجّه منه إلينا لوقوع النصف الآخر في جهة الفضاء . وكما أننا نرى القمر متشكلاً بهذه الأشكال ، فلو وقف ناظر على سطح القمر المواجه لنا ، رأى الأرض كذلك ، أى يراها بدمراً عند ما يكون القمر في الحاق ، ويراه في الحاق عند ما يكون هو بدمراً ، وأما في التربيع فالمنظر بينهما واحد حتى يجاوزاه ، فيعودا إلى الاختلاف شيئاً فشيئاً ، إلى أن يصير أحدهما بدمراً والآخر في الحاق .

الزُهْرَة

لا جرّم أنه إذا كان ، بعد الشمس والقمر ، نجمٌ حرّى بالعبادة ، فأحرّى النجوم بذلك الزُهْرَة^(١) ، لما أنها أعظم الكواكب نوراً ، وأصفاهن شعاعاً ، لا يدانيها في ذلك إلا المشتري والشعري اليانية ؛ بيئد أنهما إذا قوبلا بها عن كَشَب ، كسفت بهاءهما بتألق شعاعها ، ولا سيما عند مُعْظَم نورها ، فإنها تظهر حينئذٍ والشمس في كَسْبِ السماء . وقد عبدها جميع أمم الأرض قديماً . حتى لا تكاد تبحث في تاريخ أمةٍ إلا تجد لتلك العبادة آثاراً في مسطوراتها ومخلفاتها من هياكل وتمائيل وذيورها . ومن عبدها العرب ، وكان لها معبدٌ بصنعاء^(٢) اليمن ، وهو قصر عُمدان المشهور ، بناه على اسمها النَحَّال ولبث بيت عبادةٍ لها حتى هدمه عثمان بن عفّان .

والزُهْرَة . ولا شك ، أول كوكبٍ عُرِف من السيّارة لسرعة حركتها في فلكها ، بحيث إنها لا تثبت مدة أسبوعين في موضع واحد من السماء . وهي تكون تارةً نجم مساء . وتارةً نجم صباح ، تبعاً لموضعها من الشمس ، لأنها إذا

(١) الزهرة : اسم لنجمة يعرفها العامة باسم نجمة الصباح وقد عبدها الأقدمون وقدسوا لها

القرابين وأقاموا لها الهياكل ولا سيما في لبنان .

(٢) صنعاء : عاصمة اليمن .

كانت إلى شرق الشمس ، ظهرت بعد مغيبها في الأفق الغربي ، فكانت نجم مساء . وهي تظهر أولاً لحظة ، ثم ترتفع يوماً بعد يوم حتى يبلغ معظم ارتفاعها ٤٨ درجة ، وحينئذ تلبث فوق الأفق ما يزيد على أربع ساعات ، وبعد ذلك تعود فتسزل كما ارتفعت حتى تمر من أمام الشمس ، فتبرز من غربيها ، وتظهر قبيلها في الأفق الشرق ، فتكون نجم صباح . وتستمر في الشرق كذلك ، ثم تعود فتبرز^(١) من وراء الشمس في الأفق الغربي ، وهلمّ جرّاً .

وكانت الزهرة قديماً ، كبقية أخواتها من السيارة ، تُعتبر مضيئة بذاتها ، لأنهم لم يروا تغييراً في منظرها ، فكانت عندهم في حدة سائر النجوم الثوابت . وأول من خالفهم في ذلك كوبرنيكس الفلكي المشهور من رجال القرن السادس عشر ، فإنه لما بدّل هيئة النظام البطليموسى^(٢) ، جزم بأن السيارات ينبغي أن تكون كدورات مظلمة كالأرض ، وأن ما ترسله إلينا من النور ، إنما هو منعكس عن أشعة الشمس . فاعترض عليه بأنه لو كان الأمر كذلك ، لزم أن يظهر كل من الزهرة وعطارد بأوجه مختلفة كأوجه القمر ، ولما لم يسعه البرهان على ذلك من الطريق الحسى ، بقى قوله مهماً ، حتى حققه غاليلاي في القرن التالى بعد اختراعه للـمِرْقَب^(٣) سنة ١٦١٠ م ، فإنه أول ما وجهه إلى الزهرة ، فظهرت له فيها كل رؤى القمر من الهلال إلى البدر .

أمّا بُعد الزهرة من الشمس ، فهو ٧٢٣ من بُعد الأرض ، وفلكها قريب من الاستدارة التامة ، لأن إهليلجيتها^(٤) لا تزيد على ٠.٠٦٨ ، وهي تم دورتها

(١) تبرز : تظهر .

(٢) البطليموسى : نسبة إلى بطليموس الفلكي اليوناني صاحب كتاب المحسطى عاش قبل الميلاد .

(٣) المرقب : النظارة التي تراقب بها الأجرام السماوية .

(٤) الأهليلجية : أى الاستدارة مع شيء من الطول .

حول الشمس في ٢٢٤ يوماً ، أو سبعة أشهر ونصف ، تقطع في اليوم منها نحو ١٨٥٠٠٠٠ ميل أو ٢١ ميلاً في الثانية ، فهي أسرع من الأرض قليلاً . إلا أنه لما كانت الأرض مُشايعةً للزهرة في مسيرها إذ كلتاها تتجهان من الغرب إلى الشرق ، لزم ألا نراها أتمت دورتها إلا بعد ٥٨٤ يوماً أو تسعة عشر شهراً ونصف ، وهي مجموع سنتي الأرض والزهرة معاً ؛ غير أنها تخفي نحو خمسة أشهر من هذه المدة تكون فيها محتجبة بأشعة الشمس ، لأنها تقترن بها في كل دورة مرتين ، تخفي في كل منهما نحو سبعين يوماً ، نصفها قبل الاقتران ، والنصف الآخر بعده ، وتظهر لنا سبعة أشهر نجم مساءً ، وسبعة أشهر نجم صباح .

وأما بُعدها عن الأرض فيختلف كثيراً ، فإنها في الاقتران الأدنى تبعد نحو ٢٥٠٠٠٠٠٠ ميل ، وفي الأعلى تبعد نحو ١٦٠٠٠٠٠٠٠ ميل ، وذلك أنها في الوضع الأول تكون بين الأرض والشمس ، فلا يكون ، بين الأرض وبينها إلاّ عرض المنطقة الفاصلة بين الفلكين ؛ وفي الثاني تكون وراء الشمس ، فيكون بيننا وبينها مسافة قطر فلكها مع عرض المنطقة المذكورة . ويختلف قطرها المرئي بحسب ذلك ، فيكون بين ٦٥ و ١٠٠ ، إلا أنها في الحال الأولى تكون في الحاق ، أي يكون الموجه إلينا منها نصفها المظلم ، فلا نراها ؛ وفي الحال الثانية تكون بدمراً ، إلا أن قطرها الظاهر حينئذٍ ، أو أمكن أن نراها ، يكون أقلّ من سدس ما يكون عليه وهي في حال الحاق . ولذلك فإن معظم نورها لا يكون في شيء مما جاور هاتين الحالتين ، ولكن أنورما تكون عليه إذا بلغ تباينها ، أي بُعدها عن الشمس شرقاً أو غرباً ، ٥ ، ٣٩° وذلك قبل الاقتران الأدنى ، أو بعده بمدة ٦٩ يوماً ، وحينئذٍ يكون المنور منها ربع

قرصها ، فتكون كأنها هلال أربع . ومتى كانت كذلك فقد تُرى في إبان^(١) النهار ، كما سبقت الإشارة إليه ، إلا أن ذلك يختلف فيها بين سنة وسنة ، فبعضاً لميل فلکها ؛ وهى تعود في كل ثمانى سنين إلى الاقتران بالشمس في الموضع نفسه من السماء ، لأنها حينئذ تكون قد أتمت خمس دورات من دوراتها المرئية ، فتعود رؤيتها من الأرض إلى مثل ما كانت عليه في الموعد السابق .

وأما دوران الزهرة على نفسها ، فما اشتغل العلماء وأهل الرصد في تحقيقه زمنًا مديدًا ، واستخدموا لذلك أعظم المراقب^(٢) ، فلم يحصلوا من معرفته على يقين . وذلك أن ظاهر هذا السيار شديد البياض واللمعان ، لا يكاد يبدو عليه ظل ، ولا تظهر فيه سيمّة واضحة الحدود ، بخلاف غيره من الأجرام^(٣) المتحركة حولنا ؛ فإن كل واحدٍ منها يرى على سطحه شيء من السواد كالمحور الذى نراه على وجه القمر ، فإذا تحرك الجرم على محوره ، انتقل ذلك السواد من موضعه حتى يخفى وراء الجرم ، ثم يعود من الناحية الأخرى حتى يرجع إلى حيث كان ، فيكون قد تمّ هناك دورة كاملة ، وبمثل هذا عينا الدورة اليومية في السيارة^(٤) ، وعرفوا ميسل محاورها على سطوح أفلاكها ، ومنه علم أن القمر لا يدور على نفسه دورة مستقلة . وقد عنى الراصدون بذلك في الزهرة منذ اخترعت الآلات المقرّبة ؛ ومن عانى ذلك الفلكي كاسيني ، فإنه بعد جهد المراقبة ، ظهر له شيء من المحور على سطحها ، فبقى يراقبه على أيام متعدّدة ، فوجده كل يوم يظهر في مثل الساعة من الأمس في مكانه الأول على فترق

(١) إبان النهار : أول النهار .

(٢) المراقب جمع المرقب : المنظار الذى ترقب به النجوم « تلسكوب » .

(٣) الأجرام جمع جرم : الكوكب والنجم .

(٤) السيارة : النجم المتحرك الذى يدور حول الشمس .

زهيد تَمَثَّل له ، فحكَّم بأنها تدور على نفسها في ٢٣ ساعة و ١٥ دقيقة ، وذلك سنة ١٦٦٦ م . ثم تَبَع العلماء بعدهُ تحقِيق ذلك ، فنظر فيه بيانكيني سنة ١٧٢٦ م فأحصى لها ٢٥ دورة في ٢٥ يوماً و ٨ ساعات ، فخرج لكل دورة ٢٣ ساعة و ٢٢ دقيقة .

وتابعت الرُّصود من غير هذين ، فكان الخارج متقارباً على فرق ثوانٍ قليلة ، وحينئذٍ حكموا بأنَّ سنتها تكون مؤلفة من ٢٣١ يوماً من أيامها ، وهى السنة النجمية ؛ وأن سنتها الشمسية تكون ٢٣٠ يوماً . ثم راقبوا مَحَوْر دورانها ، وحددوا ميله على دائرة البروج ، فجعله بيانكيني^(١) ٧٥° ، وجعله غيره ممن جاء بعده ٥٥° ، وهو آخر ما جرى على اعتباره . وقد بنوا على ذلك مباحث وتفصيل شتى في تعيين المناطق والفصول ، وطول الأيام وقصرها ، وما يتبع ذلك من التفاوت في الحرِّ والبرد ، وحالة الأحياء هناك ، من النبات والحيوان ، إلى غير ذلك من الأحوال المترتبة على هذا الوضع ؛ إلى أن أعلن شيبارلى الفلكي الإيطالى سنة ١٨٩٠ م نتيجة مراقباته الطويلة ، فزعم أن هذا السيَّار لا يدور على نفسه الدورة اليومية ، ولكنه في دورانه حول الشمس ، يوجِّه إليها أحد صفحيه على حدِّ حال القمر مع الأرض ؛ وعليه فيكون أحد نصفيه معرضاً أبداً لأشعة الشمس ، والنصف الآخر في ظلمةٍ دائمة . فكان ذلك مدعاةً للفلكيين إلى معاودة الرصد والتحقيق ، فمنهم من وافق الفلكي المذكور ، ومنهم من نازعه ، وإلى الآن لم يقع الإجماع على رأيٍ في هذه المسألة الغامضة^(٢) ، ولا سيما أن هذا السيَّار ، على ما ثبت لهم بالمشاهدة وتحليل الطيف ، يسبح في ضمن حجاب كثيف من جوِّه المتلبِّد بالأبخرة والغيوم ، بحيث إن أشعة الشمس تنعكس عن هذا

(١) بيانكيني : عالم فلكي فرنسي .

(٢) الغامضة : الصعبة التي لم تعرف .

الجوّ ، لا عن سطح السيّار . وحينئذ فإنّ هذا الأمر سيقى محجوباً بحجاب الريب ، إلى أن يتلطّف ما هناك من الأبخرة المتكاثفة ، ويشفّ عما تحته ، ولعلّ ذلك لا يتمّ إلّا في ألوفٍ من السنين ، والله أعلم .

ب - في تاريخ العلم

العلوم عند العرب

إن دولة العلم عند العرب كانت دولة رفيعة العماد ، فسيحة الظلال ، حافلة بالألوف من الدارسين والباحثين والمصنّفين ، والعاكفين على الاكتشاف والاستنباط ، والضاربين في مناكب الأرض بحثاً عما أودعتها الطبيعة من الآثار ، والنافضين^(١) لآفاق السماء تطلّعاً^(٢) إلى ما هنالك من الأسرار . لم يدعوا علماً إلا ولهم فيه يدٌ ، ولا بحثاً إلا ولهم إليه قدمٌ ، فضلاً عما كان فيهم من الخطباء والشعراء والأدباء والكتّاب ، وما كان عندهم من بديع الصنائع وغريب الفنون واتساع التجارة ونموّ الزراعة . وكان العلم مصباحاً لجنودهم في كل بلاد وطئتها حوافر خيلهم وافتتحوها بسيوفهم ، حتى امتدت حضارتهم من أطراف آسيا إلى أقاصى إفريقيا وقلب أوربا . أجلّ^(٣) ، إن من تتبع العلوم التي كان العرب يتداولونها بينهم ، وجدها بأسرها مقتبسة^(٤) عن كتب اليونان إلا قليلاً اقتبسوه عن كتب الهند والفرس . ولم يثبت أنهم وضعوا علماً ولا أحدثوا في أحد العلوم فرعاً مهماً ، ولكنهم أوضحوا مبهمات^(٥) وسعوا مباحثها وصححو كثيراً من

(١) النافضين : من نفّض المكان ، تبين ما فيه حتى عرفه .

(٢) التطلع : الاستشراف ، أى رفع البصر إلى الشيء وتشوف النفس إلى إدراكه ووروده ، والعامّة وبعض الكتاب المعاصرين يغلطون في استعماله بمعنى النظر إلى كل شيء .

(٣) أجلّ : كلمة جواب بمعنى نعم .

(٤) مقتبسة : مأخوذة .

(٥) مبهمات : ما صعب وخطى معناه .

مسائلها . ولو لبث الدهر مسالماً لهم إلى هذا اليوم ، لم يبعد أن كانوا بلغوا ما بلغ غيرهم ، ممن تناولوا علومهم وصنائعهم ونزلوا منها منزلتهم . ولأسنا نزيد المطالع علماً أن مدة اشتغال العرب بالعلم لم تكن إلاّ بضعة مئاتٍ من السنين ، كانوا قبلها بقليل أهل نجعةٍ وخيامٍ ، وآلافٍ باديةٍ وأنعامٍ . فما كادوا يألفون تلك العلوم ويتصرفون فيها تصرف أهلها ، بعد أن قضوا السنين الطوال لا يزيدون على تفهّم مغازيها وحلّ مشكلاتها ، حتى اضطرب حبل دولتهم وانتقضت أحوال جامعتهم ؛ فوقفوا وهم في أوائل شرطهم . ولا شك أن مثل هذه المدة القصيرة ، مع الحال التي وصفناها ، لا تبلغ أمةً فيها زيادة على ما بلغته العرب . وإذا تجمعت علوم اليونان ، وجدت أنهم لم يصلوا منها إلى المبلغ^(١) الذي أخذته العرب عنهم ، إلا بعد أن أتت عليهم آلاف من السنين . والذين خلصوا العرب من الإفرنج ، إنما بلغوا هذا الشوط^(٢) البعيد ، في هذا الزمن القصير ، لأنهم تلقوا العلم في مدارسهم ، وتلقنوه عن أفواههم ، ونقلوا كتبه إلى أستانهم مشروحةً مبسوطة المسائل ؛ فلم يقف في سبيلهم ما يستوقف خطواتهم عن بلوغ الغاية التي ترمى إليها هممهم . وفضلاً عن ذلك فقد أخذوا عنهم كثيراً من المصنوعات : كالورق والبارود والسكر والخزف والزجاج وتصفية المعادن وتركيب الأدوية ، وفنون من النساجة والدباغة^(٣) وغير ذلك . وعلى الحملة فقد تناولوا تمدنهم تاماً بحيث إنه لم يتقوض بناؤه عند العرب ، إلا وقد قامت حجراته بعينها عند مجاورهم .

أمّا كتب العرب فهلك أكثرها في الحروب والغارات ، فنها ما أتلّفه العرب أنفسهم : ككتّاب الأندلس التي يقال إن المنصور أحرق أكثرها ، وسائرها أحرق الإفرنج . ككتّاب الأندلس ؛ وككتّبة بغداد التي أهلكتها

(١) المبلغ : القدر . (٢) الشوط : المسافة .

(٣) النساجة : حياكة النسيج .

هولاكو^(١) في دجلة ؛ ومكتبة الفاطميين ، في مصر ، التي نهبتها جنود الأتراك ، ثم اختطفتها منهم عرب البادية ، فزقتها واستعملت جلودها نعالاً ، وتركت الباقي في الصحراء ، حتى دفنته الرمال ؛ وما بقي ، بعد هذه الحوادث وأمثالها ، استولت عليه أيدي الإفرنج شيئاً بعد شيء ، كما لا يزال الحال إلى يومنا هذا ، وعمرت بهذه البقية مكاتب أوروبا .

وقد فُقد ولا شك ، في تلك الكتب ، شيءٌ كثيرٌ من العلم ، ولكن لا نخال أن هناك علماً ذهب من أصله كما يتوهم بعض المغالين في أمر هذه الحوادث ؛ فإننا لا نظن أنها كانت تشتمل على غير ما يشبه العلوم الباقية ، ولا ذهب بها شيءٌ يُفتقر إليه في جنب العلم الحاضر ؛ وإن كان ثمة شيءٌ لا يعوض ، فلا يكون إلا من قبيل التواريخ والتراجم وأوصاف البلاد والأبنية وغيرها ، مما درسته^(٢) الأيام ؛ ومن نحو دواوين الشعر والخطب وأشباهاها ، من مبتكرات القرائح ؛ وهي ولا ريب مما فُقد منه شيءٌ كثير . على أننا مهما قدرنا الخطب فيها صغيراً ، تسليّةً وتهويناً ، فلا أقلّ من ذهاب أسماء كثيرٍ من مصنّتي تلك الكتب واندراس ذكرهم ؛ وكانوا ولا شك أوفناً كثيرة من العلماء والمصنّفين ، ممن كانوا فخرًا لهذه الأمة ، وعنوانًا على عظيم مجدها وارتقائها في سلّم المدنية والعلم . على أن ذهاب تلك الكتب لم يكن مما يؤسف عليه ، لو بقيت الأمة جارية في سبيل سلفها ، ولا ذهابها هو الذي حطّ الأمة من منزلتها وذهب بعلومها ، ولكن الرُزء^(٣) ، كل الرُزء ، ما ابتليت به الأمة من الحمول^(٤) والقعود ؛ وما توالى عليها من التدابر والشقاق ؛ وتعاورها من تسلّط يد الأجنبيّ

(١) هولاكو : فاتح تترى فتح بغداد زين العباسيين سنة ٦٥٦ هـ وكان آخرهم المنتصم .

(٢) درسته الأيام : ذهبت به ولم يبق له أثر .

(٣) الرُزء : المصيبة .

(٤) الحمول : الكسل والتأخر .

دهراً بعد دهر ، حتى اضمحل العلم منها على التوالي ، ولم يبق منذ مئات من السنين ما يُذكر إلا علوم الدين ، قُصِرَت عليها الحميم ، ووقفت عندها المدارك ، وتحيّزت بها حلقات الدروس . ثم اندرس الدين كغيره إلا عند الخاصة وقليل ما هم ، فلم يبقَ إلا التعصب يزداد عصرًا بعد عصر وسنةً بعد سنة ، فكأن تلك العلوم كلها تجمّصت^(١) الدين لباسًا ، ثم استحال الدين إلى تعصبٍ يقوى كلما ضعفت مدارك أهله ، ويتأصل في القلوب كلما خات من العلم ؛ فهو اليوم مجموع علوم الدنيا والآخرة ، والخلف من تلك العلوم بأسرها . والله يداول الأيام بين الناس ، سبحانه ، لا معقّب لحكمه ، وهو الفاعل المختار .

ج - في العلم الطبيعي

كذب الحس وكذب الحواس

يعرض للإنسان أحيانًا ، أن يرى أشباحًا ، أو يسمع أصواتًا لا حقيقة لها في الخارج ، ولكنها تتصور له بصورة الحقائق الموجودة ، فلا يشكُّ في صحتها ، وهو من غريب الأسرار المودعة في الفطرة . وربما كانت تلك الأشباح أو الأصوات موجودة في الخارج . ولكن الحواس تؤدّيها إلى المُدركِ على خلاف صورتها الحقيقية ؛ وعلى الحالين يكون العقل مكذوبًا : إمّا من قبيل الحس نفسه ، كما في الحالة الأولى ، أو من قبل آتته ، كما في الحالة الثانية .

وكذب الحس من الأعراض الدالة على الاختلاط^(٢) والعتماة^(٣) بأنواعها

(١) تجمّصت : لبست قميصاً آخر .

(٢) الاختلاط : اختلاط العقل .

(٣) العتامة : فقدان العقل . ونقصانه .

إلا أنه كثيراً ما يعرض لأصحاء العقول ، لكنه إذا تكرر ولتزم ، أو كان على وجه يبعد كثيراً عن مقتضى المعقول ، كان ، ولا جرم ، دليلاً على اختلال العقل ، أو مقدمة لحدوثه . وأما إذا عرض اتفاقاً ، أو كان غباً انهماك^(١) منفرداً في أمرٍ من الأمور ، أو على أثر شغلٍ عنيف^(٢) ، أو وجدان^(٣) شديد التأثير ، فإنه يكون عرضاً ، ثم يزول بزوال سببه . على أنه في كلتا الحالتين ، لا يكون إلا عن اضطراب في أحوال الدماغ ، وتهييج عنيف في العصب ، وهما كثيراً ما يمرآن بغير أن يؤثرَا في العقل أثراً ثابتاً ؛ بمثابة ما يقع من الهذيان في الحميات ، ثم يزول بزوالها .

أمّا حقيقة هذا الشعور ، وكيفية حدوثه ، فما اشتغل به الحكماء في كل عصر وصورة على أوجه شتى ، بعضها نسخته^(٤) تبدل الآراء العلمية ، وبعضها لا يزال محلاً للخلاف والبحث . وقد عرفه المتأخرون بأنه استحالة الفكر إلى شعور ، وبعبارة أخرى ، تمثل الصور العقلية بهيئة صورٍ محسوسة . وأشهر ما ذكروا في سببه يرجع إلى ثلاثة أقوال : أحدها أنه نتيجة خللٍ عقليٍّ خاصٍ يبتدئ بتهييجٍ دماغيٍّ ، ويحدث عنه اختلاطٌ في الخياليات ، يؤدي إلى فقد التوازن بين القوى العقلية . والثاني أنه عملٌ دماغيٍّ محض ، أي شعورٌ حقيقيٌّ ، ينشأ بغير وجود مؤثرٍ في الخارج ، وحينئذ فلا خلل في العقل ، وإنما الخلل في جهاز الحس ، بأن يؤدي إلى العقل صوراً زوربيةً ، ويحمّله على أن يحكم أحكاماً محالية^(٥) . والثالث أنه أثر شعورٍ سابقٍ ، يتجدد على نفس صورته مع

(١) انهماك : تعب .

(٢) عنيف : شديد ، قاس .

(٣) الوجدان : إدراك الشيء بالعقل .

(٤) نسخته : أبطله .

(٥) محالية : مستحيلة أي غير قابلة الحدوث .

زوال المؤثر؛ فهو نتيجة انقباض^(١) في الدماغ، بحيث يتمثل له الفكر، من غير انفكاك ويكون على هيئة شعور. وهناك أقوال^(٢) أخسر لا ترجع إلى حقيقة واضحة، ولكن على كل حال، فإن هذا الشعور لا يتم، ما لم يكن ثمة خلل في أعمال الدماغ، بحيث ينفرد التخييل عن الإرادة، على نحو ما يكون في حالة الذهول والانجذاب؛ وحينئذ تعمل المتخيلة من تلقاء نفسها، من غير أن يتوجه العقل إلى تأمل الضرورات التي تمثلها، والحكم عليها.

ومعلوم أن بعض المخدرات كالحشيش، إذا استولى على العقل يفعل الفعل نفسه، وحينئذ فمن البين أن من ظهر فيه مثل آثار الحشيش بدون أن يتناوله، يكون دماغه وجهازه العصبي، في نفس الحالة التي يكون عليها شارب الحشيش، أي في حالة التهيج الشديد؛ ولا فرق في ذلك بين أن يكون عن سبب طارئ^(٣) من مثل الأسباب المذكورة قبلاً. أم عن اختلال في أعمال الدماغ؛ فهو على الجملة، ليس إلا حالة مرضية، أو حالة عقلية ليست هي الحالة الطبيعية. وهناك مشابهة أخرى بين المشاهدات التي تدرى في هذه الحال، وما يعرض من مثلها في الحلم، مما يدل على أن لكلتا الحالتين مورد^(٤) واحداً، وهو ما ذكر من أفراد المتخيلة بما تصوره للعقل، وحينئذ فهما شيء واحد، يصبح أن يقال فيه إنه حلم في اليقظة، أو اختلال في النوم. ثم إن المشاهدات المذكورة، كثيراً ما تعرض للإنسان بعد أن يغمض عينيه، وقبل أن ينام، فيرى أشباحاً غريبة، ويسمع أصواتاً باطنة، حالة كونه لا يزال مستيقظاً يسمع الأصوات التي حوله؛ وهي إذ ذاك مستنزلة^(٥) بين الاختلال والحلم. وإنما

(١) انقباض : انكماش .

(٢) طارئ : حادث .

(٣) المورد : المنبع .

يكون ذلك في ساعة غيبوبة التعقل ، حين يدخل الإنسان في حالة ينتقل منها إلى النوم ؛ ولذلك إذا انتبه ، فعمد إلى تأمل تلك المشاهدات ، تغيب عنه في الحال ، وهو الدليل على أنها من عمل المتخيلة وحدها ، ولا عمل معها للإرادة التي هي مبدأ التعقل وتميز المدرّكات .

وأكثر ما يقع كذب الحسّ ، في مدرّكات البصر والسمع ، لما أنها أكثر الحواسّ إيراداً للمحسوسات على الحسّ المشترك^(١) ، ولأن أثرهما في الدماغ أشدّ ارتباطاً بالصورة المحسوسة مما يرد عن سائر الحواسّ ويكثر حدوثه في الأحوال التي يضعف فيها تأثير المحسوسات على الحواسّ الظاهرة : كالظلمة والسكون والإغراق في التأملات الباطنة ، وما أشبه ذلك ؛ لأن المتخيلة حينئذ تخلو بالدماغ ، وتصوّر له التماثيل المختلفة من غير أن يكون لها ما يعارضها من الحسّ الظاهر . ولذلك ترى بعض الناس ، إذا انفردوا ليلاً ، أو سافروا في مجهل^(٢) من الأرض ، تخيلوا أشباح ضواري أو لصوص ، وسمعوا أصواتاً خفية ؛ ويكثر ذلك عند من تواترت^(٣) على أسماعهم الخرافات ، واستحوذت على عقولهم الأوهام والأباطيل ، فتمثل لهم أشباح العقاريت والجنّ والغيلان وأشباه ذلك مما اختزن في خيالهم .

وأما في مدرّكات ما سوى هاتين الحاستين : فلا يقع مثل ذلك إلاّ في حالة الاختلال العقلي ؛ فإنّ المعتوهين قد يشعرون بروائح وطعوم وهمية ، ويتخيلون أحياناً أن يداً تلمسهم ، أو أنهم يضرّبون أو يؤثّقون ، وكل ذلك

(١) الحس المشترك : تعبير فلسفي هو القوة الباطنة التي ترسم فيها صورة الجزئيات المحسوسة بعد ما توردها عليها الحواس الظاهرة .

(٢) المجهل : الأرض المنقطعة التي لا ساكن فيها .

(٣) تواترت : جاءتهم بالتتابع .

لا يعرض للأصحاء إلا ما كان منه نادراً في الحلم ، وهو ما يؤيد الشبه بين الحلم والاختلال^(١) .

وأما كذب الحواس ، فيكون العقل معه صحيحاً ، لأن المدركات تكون متحققة في الخارج ، ولكنها تتأدى إلى العقل على خلاف ما هي فيحكم بمقتضاها . وكذلك الحاسة تكون سليمة أيضاً ، غير أنها تلتبس عليها أعراض المحسوسات ، إما لشيء في المحسوس كما ترمى العصا المغموس طرفها في الماء مكسورة^(٢) ، وكما يرمى السراب ماءً ، أو لشيء في الحاسة نفسها ، كما يرمى النجم ذا شعاع متشعب ، وإنما هذه الشعَب في بِلْتورية العين . وأما إذا كانت الحاسة مَوْوُفَة^(٢) كما يحدث أحياناً فساد الذوق لحالة مَرَضِيَّة ، فيتغير بهذا السبب طعم المَندُوقات ، وكما يتفق لبعض الناس أن يفقد الذوق والشَّم بَتَّةً ، أو أن لا يفرق بين بعض الألوان كالأحمر والأخضر لم يكن ذلك في شيء مما نحن فيه .

وكذب الحواس أكثر ما يقع للبصر لاختلاف ما يرد عليه من أعراض المُبصِرَات ، إذ به يُدرك اللون والشكل والحجم والمسافة والوضع وغير ذلك . وأكثر ما يخطئ البصر في تقدير حجم الأشباح إذا اختلف لونها ، كما إذا كان أحد الشبهين أبيض ، والآخر أسود أو قريباً منه ، فإن الأبيض يرمى أكبر حجماً ، وعلته انتشار النور عنه ، حتى كأنه يفيض عن أطرافه ؛ وبعكسه الأسود ، ولا سيما إذا كان محاطاً ببياض ، فإن البياض الذي حوله يسطو عليه ، حتى كأنه يأخذ شيئاً من أطرافه . ولهذا السبب نرى الهلال ، في أوائله ، أطول عند طرفيه مما يليه من القسم المظلم المنعكس إليه نور الأرض ؛ ونرى بعض النجوم أكبر من بعض ، تبعاً لشدة ضوئها ، حتى نتوهم أن

(١) الاختلال : اختلاط في العقل .

(٢) مَوْوُفَة : أى مصابة بآفة ، والآفة : الشيء الفاسد المرذول .

لبعضها قُطراً محسوساً؛ مع أنها ترى جميعاً بالمرقب (التلسكوب) أشبه بنقطة هندسية . وبهذا الاعتبار كان المتقدمون يقدرّون أقطار السيارة أعظم مما هي . فإنّ تينخوبراهي ، مثلاً ، كان يقدرّ حجم الزُّهرة أكبر مما هو باثني عشر ضعفاً ؛ وكان كبلر يقدره أكبر بسبعة أضعاف . ولكن لما اخترعت المناظير ، أمكن أن يُرى كل من السيّارة والثوابت على حجمه النسبي ، لأنها قلت كثيراً من انتشار النور وإن لم تقطعه بالمرّة .

وهناك أمرٌ آخر ، وهو أننا نرى الشمس والقمر وصُور الكواكب عند الأفق ، أعظم مما تُرى بعد ارتفاعها مسافة في السماء ، وهو من الأمور التي لم يتوصلوا إلى بيان علّتها على وجه يكفل بالاعتناع ، ولكنه على كل حال راجعٌ إلى خطئِ البصر ؛ لأن الكبر والصغر في مرأى الشبح الواحد ، إنما يتأتّيان عن القرب والبعد ، وليس في مسافة الشمس والكواكب ما يظهر فيه مثل هذا الفرق . على أنه لو كان هذا مما يؤثّر في منظرها ، لوجب أن تُرى عند الأفق أصغر ؛ لأنّ لو قسنا القمر وهو عند الأفق ، ثم قسناه وهو في السمّت^(١) لوجدنا قُطره عند الأفق أصغر بنحو ١ من ٦٠ من قُطره في السمّت ؛ لأنه حينئذ يكون أبعد عن الناظر بأربعة آلاف ميل التي هي قياس نصف قطر الأرض . ومن كذب البصر أن تظهر الألوان على غير ما هي ، وهو محمولٌ في الغالب على تعب الشبكية^(٢) وذلك كما إذا وُضع أمام العين لونٌ أحمر ، ونظرت إليه مدةً ، فإن الجزء من الشبكية المتأثر بالأحمر ، يستمرّ بعد ذلك حينئذ لا يشعر بهذا اللون ؛ فإذا عُرّض على العين ، والحالة هذه ، رقعةٌ بيضاء فإنّ هذا الجزء منها لا يبصر إلاّ اللون المتمّ للأحمر ؛ فيظهر ما يقع عليه من لون الرقعة أخضر .

(١) في السمّت : خط مستقيم طولا يكون من الأعلى إلى الأدنى موازياً لرأس الإنسان .

(٢) الشبكية : أي شبكية العين ، وهي أجزاءها المتداخلة .

ومثله ما إذا كتب الإنسان ، مدة ساعة أو نحوها بالخبر الأحمر ، ثم نظر بعد ذلك إلى صحيفة مكتوبة بالخبر الأسود ، فإنه يراه أخضر . وما يعسر تعليقه في هذا المقام ، أنه إذا وضع لونان مختلفان ، أحدهما بجانب الآخر ، لا يُبصران كما لو وُضع كل منهما وحده ، ولكن يُرى كل منهما كأنه قد أُضيف إليه شيء من مُتَمِّ الآخر . وعليه فإذا وُضع الأحمر بجانب الأخضر ، ظهر الأحمر أشدّ حمرةً ، والأخضر أشدّ خضرةً ؛ وإذا وُضع الأحمر بجانب الأزرق ، يميل الأزرق إلى الأخضر ، والأحمر إلى النارجي^(١) .

وأثلة كذب البصر كثيرة ، منها في اللون ، ومنها في الحجم ، أو الشكل ، أو غير ذلك مما ذُكر فلا نطيل بها . وعلى كذب البصر بُنيت صناعة التصوير وتمثيل ما في الأشباح من دقائق الأجزاء الشاخصة والغائرة المقوِّمة لأشكال الأجسام ؛ وإليه المرجع في كل ما يرى من الصور البديعة الصنع ، التي يتنافس بها المصورون ، وتُبدل فيها الألوف من الدنانير . وليس منّا إلاّ من رأى منها ما هو بالغ أتمّ مبلغٍ من استحكام الصنعة ، حتى قد يتوهم الرسوم المصورة أشباحاً مجسّمة . وإنما هي كذلك عند الباصرة ؛ وأمّا عند اللمس فليست إلاّ أطلبيّةً ساذجة على ألواحٍ بسيطة . وقس على ذلك ما يتعاطاه بعضهم من الشعوذات المختلفة ، مما حيرّ عقول الأغرار ، وأوهمهم وجود السيمياء^(٢) والطلاسم إلى غير ذلك .

أمّا كذب بقية الحواس ، فهو أقلّ كثيراً لقاءً ما يقع في محسوساتها من الاشتباه ، وهو لا يكاد يعرض إلاّ للسمع واللمس ، وذلك كما إذا احتجبت جهة

(١) النارجي : أى لون أحمر كلون الرمان .

(٢) السيمياء : ضرب من الألعاب السحرية ، تحدث فيها مثالات خيالية لا وجود لها في

الصوت ، وردّه الصدى من جهة أخرى ، فإنّ السامع يتوهمه صادراً من تلك الجهة . ويقرب من هذا ، الإيهام الذى يفعله المتكلم من جوفه ، فيوهم السامع أن المتكلم غيره . وكما إذا وضع الإنسان يده فى ماءٍ حار ثم غمسها فى ماء فاتر ، فإنه يشعر بذلك الماء بارداً . وإلى مثل هذا السبب ، يرجع ما نجده من برد ماء الينابيع فى الصيف وفتوره فى الشتاء ، مع أن درجة حرارته فى الحالىين واحدة . وفى جميع ما ذكر ، لا بدّ لإدراك حقيقة المحسوس من الاستعانة بحاسةٍ أخرى ، أو الرجوع إلى قياس العقل أو التجربة . وعلى كل حال ، فالعقل هو قاضى محكمة الحواس ، وإليه ينتهى الفصل فى كل ما يُعرّض عليه منها ؛ فإذا عُرِّل عن منصّته ، أو ضلّ فى حكمه ، لم ينفع بعضها شهادةٌ بعضٍ ، ولم يؤثّق منها بحكم صحيح .

٤ - إبراهيم اليازجى اللغوى

١ - دراسات

اللغة والعصر

كتبه يوم انصرف الأدباء إلى تحصيل ملكة الكتابة العربية الصافية والتضلع من اللغة بحقيقتها
ومجازها :

لم يبقَ فى أرباب الأفلام ومنتحلى صناعة الإنشاء، من هذه الأمة ، من لم يشعر بما صارت إليه اللغة ، لعهدنا الحاضر ، من التقصير بخدمة أهلها ، والعُقم بحاجات ذويها ، حتى لقد ضاقت مُعجَماتها بمطالب الكتاب والمُعربين ، وأصبحت الكتابة فى كثيرٍ من الأغراض ضرباً من شاق^(١) التكليف ، وباباً

(١) الشاق : المتعب .

من أبواب العنّت . واللغة لا تزداد إلا ضيقاً باتّساع مذاهب الحضارة وتشعب طرق التّفنن في المخترعات والمستحدثات ، إلى أن كادت تُشبّه^(١) في زوايا الإهمال وتلحق بما سبقها من لغات القرون الخوال . ومستّ الضرورة إلى تدارك ما طرأ عليها من التّسّم قبل تمام العفاء ، وقبل أن ينادى عليها مؤذّن العصر : سبحان من تفرّد بالبقاء ، ويُسخّتم على مُعجّماتها بقصائده التّأبين والرثاء .

تلك هي اللغة التي طالما وصفها الواصفون بأنها أغزر^(٢) الألسنة مادةً ، وأوسعها تعبيراً ، وأبعدها للأغراض مُتّسناً ولاً ، وأطوعها^(٣) للمعاني تصويراً ؛ قد أفضت^(٤) اليوم إلى حالٍ لو رام الكاتب فيها أن يصف حجرة مناميه ، لم يكذبجد فيها ما يكفيه هذه المؤونة اليسيرة ، فضلاً عما وراء ذلك من وصف قصور الملوك والكبراء ، ومنازل المترّفين والأغنياء ، وشوارع المدن الغناء ، وما ثمّ من آنيةٍ وأثاث وملبوسٍ ومفروش ، وغير ذلك من أصناف الماعون وأدوات الزينة ، مما لا يجد لشيء منه اسماً في هذه اللغة ؛ ولا يكون حظّ العربيّ من وصفه إلاّ العيب والحصر^(٥) ، وطىّ لسانه على معاني في قلبه لا يتسنى له إبرازها بالنطق ، ولا يجد سبيلاً إلى تمثيلها باللفظ ؛ كأنّ المقاطع التي يعبّر بها عن هذه المشخّصات لم يُخلّق لها موضعٌ بين فكّيّه ؛ وليست مما يجري بين لسانه^(٦) وشفثيه ، فعاد كالأبكم يرى الأشياء ويميّزها ، ولا يستطيع أن يعبّر عنها إلاّ بالإشارة ، ولا يصفها إلاّ بالإيماء .

(١) تبيذ : تلفظ ، ترك جانباً .

(٢) أغزر : أوفر .

(٣) أطوعها : ألينها .

(٤) أفضت : صارت .

(٥) الحصر : العي في النطق وعدم الإفصاح عن المعنى .

(٦) اللسان : اللسان المشرفة على الحلق من أعلى الفم .

وباليت شعري ، ما يصنع أحدنا ، لو دخل أحد المعارض الطبيعية أو الصناعية ، ورأى ما نمتة من المسميات العضوية وغير العضوية ، من أنواع الحيوان وضروب النبات وصنوف المعادن ؛ وعابن^(١) ما هناك من الآلات والأدوات وسائر أجناس المصنوعات ، وما تتألف منه من القطع والأجزاء ، بما لها من الهيئات المختلفة ، والمنافع المتباينة ؛ وأراد العبارة عن شيء من هذه المذكورات ؟

ثم ما هو فاعلٌ ، لو أراد الكلام فيما يحدث ، كل يومٍ ، من المخترعات العلمية والصناعية والمكتشفات الطبيعية والكيمائية ، والفنون العقلية واليدوية ، وما لكل ذلك من الأوضاع والحدود والمصطلحات التي لا تغادر جليلاً^(٢) ولا دقيقاً إلا تدل عليه بلفظه المحصوص ؟

لا ريب أن الكثير من ذلك لا يتحرك له به لسان ، ولا يعهد له ، بين ألواح معجمات اللغة ، ألفاظاً يعبر بها عنه ، ولا يغنيه في هذا الموقف ما عنده من ثمانين اسماً للعسل ، ومتى اسمٌ للخمر ، وخمسمائة للأسد ، وألف لفظةٍ للسيف ، ومثلها للبعير ، وأربعة آلاف للداهية ، وما يفوت الحصر لشيءٍ آخر حرص مؤلف القاموس على استقصاء ألفاظه ، حتى لم يكدر يذكر مادةً إلا وفيها شيءٌ يشير إليه ويدلُّ عليه !

على أن اللغة مرآة أحوال الأمة ، وصورة تمدنها ، ورسم مجتمعتها ، وتمثال أخلاقها ومساكناتها ، وسجلٌ ما لها من علوم وصنائع وآداب . وإنما تضع منها على قدر ما تقتضيه حاجاتها في الخطاب ، وما يتمثل في خواطرها ، أو يقع تحت حسها من المعاني . ومعلومٌ أن العرب واضعي هذه اللغة ، كانوا قومًا أهل بادية ،

(١) عابن : شاهد .

(٢) جليلاً : عظيمًا .

بيوتهم الشعر والأديم^(١) ، ومفرشهم الباري^(٢) والبلاس^(٣) ولباسهم الكساء والرداء ، وأثاثهم الرحي والقيدر ، وآنيتهم القعب^(٤) والحفنة^(٥) ، إلى ما شاكل ذلك مما لا يكادون يتعدونه في حيل ولا ترحال . فأين هم ، وما نحن فيه ، لهذا العهد ، من اتساع مذاهب الحضارة ، والاستبحار في الترف واليسار ، وكثرة ما بين أيدينا من صنوف المرافق^(٥) وأنواع الأثاث والزخارف ؛ وما نحن فيه من التفتن في أحوال المجتمع والمعاش ، فضلاً عما بلغ إليه أهل هذا العصر من التبسط في مناحي العلم والصناعة ، مما كان أولئك بمعزل عن جميعه ؛ إلا ما حدث بعد ذلك في عهد استفحال الإسلام مما ذهب عنّا أكثره ، وما كان فيه لو بلغ إلينا إلا غناءً قليل .

ومهما يكن من حال أولئك القوم ، وضيق مضطرب الحضارة عندهم ، وما نجد في ألفاظهم من الفاقة والتقصير عن حاجات هذا الزمن ، فلا يتوهمن متوهم^٢ أن ذلك وارد على اللغة من هرم أدركها ، فقعد بها عن مجازاة الأحوال العصرية ، وأناخ بها في ساقاة الألسنة الحالية^(٦) فإن معنى الهرم^(٧) في اللغة أن يحدث عند المتكلمين بها معان قد خلت ألفاظها عنها ؛ ثم تضيق أوضاعها عن إحداث^(٨) ألفاظ تؤدّي بها تلك المعاني ، فيطرأ على اللغة النقص ، حيناً بعد حين ،

(١) الأديم : الجلد .

(٢) الباري : الحصير المنسوج من القصب .

(٣) البلاس : بساط نسج من شعر الماعز .

(٤) القعب : القلح الضخم يصنع من الخشب . الحفنة : القصعة الكبيرة .

(٥) المرافق : الأشياء التي ينتفع بها .

(٦) ساقاة الألسنة : أي مؤخرة اللغات .

(٧) الهرم : الشيخوخة .

(٨) إحداث : وضع .

إلى أن تعجز عن أداء أغراض أهلها، ولا تبقى صالحة للاستعمال ؛ وحينئذٍ فلا يبقى إلا أن يلتقى جبلها على غاربها^(١) ، أو يستعان بغيرها على سد ما عرض فيها من الخلل، بما يغيّر من ديباجتها ، وينكّر أسلوب وضعها حتى تتبدل هيئاتها على الزمن ؛ وتصير ، على الجملة ، لغة أخرى .

وليس بمنكبر أن ما وصفناه من هذه الحال يشبه في بادى الرأي ما نشاهده من حال لغتنا اليوم ، وما لم نزل نعاها عليها ، منذ حين ، من تقصيرها عن الوفاء بمطالبنا العصرية ، إلا أن ذلك إذا استقرت أوجه وأسبابه ، وسبّرت غور اللغة في نفسها ، وقست مبلغ استعدادها ، علمت أنه ليس منها في شيء ، وأيقنت أنها لا تزال في ريعان شبابها وطور ترعرعها ، وأن فيها بقية صالحة لأن تجارى أوسع اللغات وأكثرها مادّة ، ولكن ما أدركها من ذلك وارد من قبيل الأمة، وتخلّفها في حلبة الحضارة والمدنية ؛ إذ اللغة بأهلها تشبّ بشبابهم وتهرم بهمهم ، وإنما هي عبارة عما يتداولونه بينهم لا تعدو ألسنتهم ما في خواطرم ، ولا تمثل ألفاظهم إلا صور ما في أذهانهم . وبدهى أن اللغة لم توضع دفعة واحدة ، وإنما كان يوضع منها الشيء بعد الشيء ، على قدر ما تدعو إليه حاجة المتكلمين بها وقد اختصت هذه اللغة بمزية عز أن توجد في غيرها ، وهي أن أكثر ألفاظها مأخوذ بالاشتقاق اللفظي أو المعنوي ، بحيث صارت إلى ما صارت إليه من الاتساع الذى لا تكاد تضاهيها فيه لغة ، على كونها من أقل اللغات أوضاعاً ، إلا أنها من أكثرهن صيغاً وأبنية ، وهو السر في قبولها هذا الاتساع العجيب ، فضلاً عما فيها من تشعب طرق المجاز . واعتبر ما ذكرناه من ذلك بالرجوع إلى ما كانت عليه اللغة زمن الجاهلية

(١) يلتقى جبلها على غاربها : أى تترك وشأنها ، تذهب حيث شاءت . والغارب : رتبة الجمل

وفي صدر الإسلام ، ومقابلتها بما بلغت إليه على عهد الخلفاء من بنى العباس ؛ بعد سكون الغارات واستتباب الفتوح ، وتنبه الأمة لطلب العلوم وتبسطها في فنون الحضارة ، بحيث خرجوا بها من حال الخشونة البدوية ، إلى أبعلم مذاهب المدنية الشائعة لعهدهم ذلك ؛ لم يكادوا يُدخلون فيها لفظاً أعجمياً^(١) ولا اضطرُّوا فيها إلى وضعٍ جديد ، ولكنها خدمتهم بنفس أوضاعها التي وضعتها العرب ، فاشتقُّوا منها ما لا عهد به للعرب ، على وجهه الذي نقلوه إليه ، ولم تتكلم به أصلاً ؛ حتى أحاطوا بصناعة الفرس وعلوم اليونان ، وأدخلوا كثيراً من مصطلحات الأمم التي اجتاحتها^(٢) شرقاً وغرباً ، وزادوا على ذلك كله ما استنبطوه^(٣) بأنفسهم . واللغة مشابحة لهم في كل ما أخذوا فيه ، لم تنضب مواردها دونهم ، ولا رأينا من شكها منها عجزاً ولا تقصيراً ، إلى أن أدركهم من تبدُّل الأطوار ، وغارات الأقدار ، ما وقف بهم عند ذلك الحد ، فوقفت اللغة عند ما نراه فيما وصل إلينا من كتبهم . وتوالى الاجتياح بعد ذلك على الأمة ، وتتابعت دواعي الدمار ، حتى اندرست أعلام حضارتها ، وذهبت علومها أدرج الرياح ؛ فزال أكثر اللغة من ألسنتها بزوال معانيها ، حتى صار الموجود منها اليوم لا يقوم بخدمة أمة متمدنة ، ولا هو أهل لأن يُبلَّغ به ما منزلته تلك . ولذلك فإن كان ثمة هرم فإنما هو في الأمة لا في اللغة لأن ما عرض لها من المهجر والإهمال غير لاحقٍ بها ، ولا ملحقٍ بها وهنأ^(٤) ولا عجزاً ، وإنما هو عجزٌ في ألسنة الأمة ومداركها ، وتأخرٌ في أحوالها واستعدادها . ولو صادفت من أهلها ، البقاء على عهد أسلافهم من السعي في سبُل الحضارة وتوسيع نطاق

(١) يستثنى من ذلك كتب الطب .

(٢) اجتاحتها : دخلوها بمامل أفتح .

(٣) استنبطوه : اخترعوه بأنفسهم .

(٤) الوهن : الضعف والتعب .

العلم ، لم تقصّر عن مشابعتهم في كل ما فاتهم من الأطوار ، حتى تبلغ بهم إلى مجارة العصر الحاضر .

واقعد أتى على اللغة مئات من السنين بعد ذلك ، لم يزد فيها حرفٌ ، بل لم يكد يُحفظ منها ما يزيد على الحوائج البيئية والسوقية . على تناقص هذه الحوائج وتراجع عددها يوماً بعد يومٍ ، بما طراً^(١) على أهلها من الضغط والفاقة^(٢) ، وما اتصل بذلك من استيلاء الجهل وتقلص العمران وذهاب الحضارة من بينهم ، حتى عادت حوائج كثير من أهل المدن الحافلة لا تكاد تمتدّى حوائج البدوى والأكثار^(٣) . وما دامت المعاني التي يعبر عنها باللغة معدومة ، فلا سبيل إلى الألفاظ الدالّة عليها ، إذ اللفظ إنما يتخذ للعبارة عن الحواطر التي في النفس ، فلا يكون إلاّ على قدرها بالضرورة . وزاد على ذلك كله ذهاب ما كتب المتقدمون : بعضه بالإحراق كما تمّ في مكتبة قُرطُبة ؛ وكأنّ هذا في مقابلة ما وقع من مثله بالإسكندرية وفارس^(٤) وبعضه بالاجتياح^(٥) والنهب ؛ فلا بقي في مكانه ينتفع به المتأخر ، ولا احتفظ به الذي نهبه لجهله بقيته . وبقي الشيء اليسير نجده اليوم في مكاتب الأعاجم ، وأكثره مما اشتدّى من أيدينا بالذهب فلا غرو إن نشأ عن تلك الأحوال كلها ذهاب هذه اللغة من ألسنة الأعقاب ، حتى لو رام أحدنا إثارة دفائنها وتعهدّها بالتجديد والإحياء لما وجد منها في البلاد إلاّ الشيء النزر^(٦) لا يعدو ، في الغالب ، علوم الدين وما يتصل بها مما لم يكد أهل بلادنا يحافظون على سواه .

(١) طراً على : أصاب .

(٢) الفاقة : الحاجة والفقر .

(٣) الأكثار : الحرث .

(٤) فارس : بلاد إيران « العميم » .

(٥) الاجتياح : فتح الجيوش للبلدان والدخول إليها عنوة .

(٦) النزر : القليل .

فصل

في السمع^١

تقول : سمعت الرجل يقول كذا ، واستمعتُه ، وسمعتُ كلامه ، وسمعتُ صوته ، وأنستُ صوته ، ووجدتُ حسَّه ، وسمعتُ له ركزاً^(٢) وسمعتُ له حساً وحسيساً ، وما سمعتُ له حساً ولا جرساً^(٣) وقد سمعتُ كذا ، وقرع سمعي ، ومرَّ بسمعي ، وورد على سمعي ، ووقع في سماعي ، وبلغ مسامعي ، وذلك سمع أذني ، وسماع أذني ، وهذا كلام ما استكَّ في مسامعي مثله ، وما سلك سمعي مثله . وما استأذن على سمعي مثله ، وتقول سمعُ أذني فلاناً يقول كذا ، وسمعهُ أذني كما تقول : رأى عبي وقال ذلك سمع أذني ، وسماعُ أذني ، وسمعاً قاله ، أي قاله مسمعاً^(٤) وتقول سمعتُ له ، وإليه ، وأصغيتُ له ، وأصغختُ له ، وأرعيتُه سمعي ، وراعيتُه سمعي ، وأقبلتُ عليه بسمعي ، ورفعتُ له حجاب سمعي ، وراعيتُه سمعي ، وألقيتُ إليه السمع . وتقول لمن تحبته : سمعك إلى ، وسماعك إلى ، وسماع كحذارٍ ، أي : اسمع ، وتقول تسمع فلان إلى حديث القوم ، وإنه ليسرق السمع إذا كان يتسمع مخفياً . . .

(١) ننقل هذه المختارات عن كتاب (نجمة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد) .

(٢) الرکز : الصوت الخفي .

(٣) الجرس : بالفتح والكسر ، الصوت الخفي وقيل هو بالفتح ويكسر مع الحس

للإزدواج .

(٤) هو من وضع المصدر المجرد موضع المزيد وانتصابه على الحال .

فصل في الذوق

تقول: ذقت الطعامَ والشرابَ ذوقاً وذَواقاً ، وطَعِمْتُهُ طُعْمًا « بالضم »
وتطَعَّمْتُهُ . وفي المثل تطعمم تطعمم . أى ذق تشته ، وطعام مرّ المذاق والمذاقة ،
ومر الطعم « بالفتح » . . .

وتقول: هذا طعامٌ حلوٌ ، وإنه لصادقُ الحلاوة ، محضُ الحلاوة ، خالصُ
الحلاوة ، وتمر وعسل حَمَمْتُ وَحَمَيْتُ ، أى شديد الحلاوة . وهو أحلى من
المننَّ ، وأحلى من القند^(١) وأحلى من الشَّهْدِ ، وأحلى من الضَّرْبِ^(٢) ، وإنما
هو الشهد المصفى ، والسكر المكرر . . .

وهذا طعام كَتَفَنُ أى لا ملح فيه ، وماء عذب ، وزلال ، وفُرَات ،
ورُضَاب وسلسال ، إذا كان خالصاً لا ملوحة فيه . ويقال رجل حثِر اللسان ،
كما يقال : حثِر الأذن ، أى لا يجد طعم الطعام .

فصل

في العشق والحلو

يقال : أحب المرأة وهوِيَّهَا ، وَعَشِقِيهَا ، وتعَشَّقَهَا ، وَعَلِقَهَا ، واعتلقها ،
وتعلَّقَهَا ، وصبا إليها ، وَكَدِيفَ بِهَا ، وَهَامَ بِهَا ، وَأَغْرَمَ بِهَا ، وَوَلَهُ بِهَا ،
وولِعَ بِهَا ووقعت بقلبه ، وأخذت بمجامع قلبه وأثرب قلبه حببها ، وملاك
حببها عنانته . وهو بِهَا صَبَّ ، كَدِيفَ ، مغرم ، هائم ، ومستهام . وهو بِهَا

(١) القند : عسل قصب السكر .

(٢) الضرب : العسل الأبيض .

كَلِيفِ الْفُوَادِ ، كَلِيفِ الضُّلُوعِ ، عَمِيدِ (١) الْقَلْبِ . وَقَدْ أَصْبَتَهُ الْمَرْأَةُ وَتَصَبَّتَهُ ،
وَاسْتَهْوَتْهُ ، وَدَلَّتْهُ (٢) وَاخْتَبَلَتْهُ (٣) وَهَيْمَتَهُ ...

فصل

في الإخبار والاستخبار

يقال أخبرني فلان كذا ، وبكذا ، وخبرني وأنبأني ونبأني ، وعرفني وأعلمني ،
وأبلغني كذا ، وبلغني ، وحدثني بالخبر ، وقصه علي ، واقتصه علي ونقله
إلي ، وأنهاه إلي ، وأوصله ، وساقه ، ورفع ، ونماه . وقد بلغني خبر كذا ،
وأتاني ، وجاءني ، وورد علي ، وانتهى إلي ، وتأدّى إلي ...

٥ - إبراهيم اليازجي في رسائله

رسالة إلى صديق

... لو أجبتُ داعيَ الشوقِ لَمَمًا دعا ، وكنت لحافز^(٤) الذكر طيِّعًا ،
لسلِّمتُ كلَّ خافقةٍ^(٥) كتابًا ، ولحمّلتُ كلَّ بارقةٍ خطابًا ، ولكنني أجزرُ
لجّاج^(٦) الشوقِ بالصبرِ ، وأقمعُ سَـوَرَةَ^(٧) الذكرِ بالحلمِ ، إلى أن يبدلَ الله

(١) عميد : من قولهم عمده المرض أي فدحه وأثقله .

(٢) دلته : أذهبت عقله .

(٣) اختبلته : أذهبت عقله .

(٤) الحافز : الساجل .

(٥) الخافقة : نابضة من نبضات القلب .

(٦) اللجاج : الإلحاح وطلب الشيء بشدة .

(٧) السورة : الوثبة ، والشدة .

وجوه الصحائف بصفحات الوجوه ، جعل الله موعد اللقاء قريبًا ، ومتعني
بأنسك وأنت على ما تروم من حسن الحال ، ورخاء البال .

رسالة أخرى إلى صديق

. . . كلما لجج بنا داعي الشوق ، وضافت بنا مسافة الصبر ، عمدنا إلى
هذه الصحف نسودها بشكوى الفراق، ونشحنها بعتاب الدهر ، ويطويها على
لواعج^(١) الصدر ، ثم سیرناها والشوقُ باقٍ ، والشكوى لم تبرح ، والذكرى
مناط^(٢) النسيم كلما. خفق ، والبرق كلما ائتلق ، والظير كلما صدح ، والروض
كلما نفح ، يومٌ يمرّ ويأتي غده ، والأمانى تتوقع يومًا لا نجده .

شكر

مهما زدتنى من جميلك المألوف ، وصنيعك المعروف ، فما أزيدك على
ما ينطق به لسان حالى من الاعتراف بتطوئك^(٣) والثناء على تفضلك ، ولا سيما
فيما أبديت من الحفاوة^(٤) واللطف فى جانب أخى وأخيك ، النازل فى كنف^(٥)
تدبيرك ، الموكول إلى حسن رأيك ، وهى يدٌ كلك حملت جميلها على عاتق^(٦) ،
فوق ما أثقلت أباديك السابقة ، وألطفك السالفة ، وإنى لآمل له بمؤازرتك^(٧)

(١) لواعج : جمع لاعجة : حرقه واشتعال .

(٢) مناط : اسم لموضع التعليق وقولم : هو منى مناط الثرى أى فى البعد .

(٣) التطول : التفضل والمنة .

(٤) الحفاوة : الإكرام وحسن الاستقبال .

(٥) الكنف : الجانب .

(٦) العاتق : ما بين الكتفين .

(٧) المؤازرة : المساعدة .

نجاحاً لا يعترضه إخفاق مسعى ، وفوزاً لا يصدف عنه طيش رأى . وأسأل
الله له السلامة والتوفيق بمنه وطوله .

نعى

. . . ورد كتابك العزيز وأنا مشتغل من مرض سيّدتي الوالدة بما أذاب
العيون أرقماً ، واستطار القلوب قلقاً ، حتّى قضى الله بما تابع الحشرات ، وجدّد
العبرات ، فإيّاه أسأل أن يعوّضني طول بقائك ، ويعزّيني بقرب لفائك ،
بمنه وكرمه .

عزاء

. . . من علم أن القضاء واقع ، وأن الأعمار رهائن المصارع (١) ، فلم
يصحب دهره على غيرة (٢) ، ولم يفتّر من الأقدار بفترة ، لم تكبر عليه الرزينة (٣)
إذا اغتالت (٤) ، ولم يطمئن إلى السلامة وإن طالّت ، فإن الدهر رقدة وهبّة ،
وإن الليالي كمنة ووثبة ، ومثلك من أدرك مبادئ الأمور ومصايرها ، وعرف
موارد الحياة ومصادرها . وإنما الموت طورٌ من أطوار الوجود ، وآخر أعمال الحياة
في الموجود ، ولا أزيدك علماً بالكون وشرائعه ، والكائن وطبائعه ، إنما هي
ذكرى لمن فجّاه الرزءُ فشغله ، وحلّ بساحته القضاء فأذهله ، وحسبي من
التعزية علمي بما عندك من موارد العلم المباح ، ومن التأسيّة ما تعلمه من حال
مخاطبك وهو سائل الجراح . وما أخلقني بأن أقول : إنّ رزءك هذا قد

(١) المصارع : جمع مصرع ، مقتل .

(٢) غرة : غفلة .

(٣) الرزينة : المصيبة .

(٤) اغتالت : أصابت وأخذت غيلة ، على حين غفلة .

زادني شجنتاً على أشجاني ، ونكأ ما تماثل من قرحة أحزاني ، ولكنني قد صيرني
 الدهر إلى حال لا تعمل فيها حال ، ولا أبالي بسلم ولا قتال ، فكأنما إياي
 عنى أبو الطيب حيث قال :

رمانى الدهرُ بالأرزاءِ حتّى فوآدى فى غشاء من نبال
 فصرتُ إذا أصابتنى سهامُ تكسرتِ النصالُ على النصال

٦ - إبراهيم اليازجى الوصّاف

سوريا

وهذه نزعة اجتماعية وطنية يرسلها الشيخ نفثة من صدر متألم على البلاد ويدعو فيها إلى الاتحاد، قال :

سوريا هي القطر الذى كسته الطبيعة حلّة الجمال ، فزقتها يد الإنسان ،
 وخصّته بمزايا تفرّد بها عن المثال ، فعادت عليه بالخسران ، وتباب (١) السكان .
 جوٌّ صافى الأديم ، لا يكفهراً (٢) إلاّ ليجود السحابُ بالقطر ، ويتفرق ماءُ
 العيونِ على حصباء (٣) كالدرّ ، فتبسمّ الرياضُ فيه عن ثغور الزهّر ، وهواءُ
 لا يهبُ إلاّ عبقت أردانه (٤) بشذا العِطر ، فيبعثُ الحياة هبوبةً ، ويمارِجُ
 الأرواحَ طيبه ، وسهولٌ فسيحة الأطراف ، خصيية الأكناف (٥) ، تتدفق
 فى جوانبها الجداول (٦) والأنهار ، وتنمى فى مناكبها (٧) الحدائق المنتفضة الأشجار ،

(١) التباب : الهلاك ، البوار .

(٢) اكفهراً الجو : أظام لكثرة السحاب .

(٣) الحصباء : الحصى .

(٤) عبقت أردانه : الردن طرف الكم الواسع . ويريد أن الهواء يتضغع برائحة الأزهار العطرة .

(٥) الأكناف : جمع الكنف : الجانب .

(٦) الجداول : جمع الجدول ، وهو مخزى الماء الصناعى .

(٧) المناكب : جمع المنكب ، ما بين الكتف والظهر .

الطيبة الثمار ، وجبال احتبكت شعابها ، وتناوحت (١) هضابها (٢) ونشزت (٣) صخورها وأكامها ، وكلدت بالثلج هامها (٤) ، واخضرت سفوحها ، واخضلت آجامها (٥) فكانت معقلاً للشريد ، ومعتمماً للطريد .

هذه سوريا التي سبقت في المدنية والحضارة ، واكتظت بالسكّان والعمارة ، وإنما بلغت هذا الشأن العظيم بالزراعة والصناعة والتجارة . وهي تمتد من البحر المتوسط غرباً ، إلى الفدّرات والبادية شرقاً ، ومن آسيا الصغرى شمالاً ، إلى حدود مصر جنوباً ، فتشمل على القطر المعروف من قديم الزمان بأرض الموعد ، والأرض المقدّسة .

وقاعدتها دمشق العريقة (٦) في الحضارة ، المتقدمة العهد في المدنية ، جنة الأرض المنقطعة النظير ، في جمال غوطتها ، وحسن موقعها ، وصفاء مائها ، واعتدال هوائها ، وطيب ثمارها ، وكثرة حدائقها . . .

وما عداها من مدن سوريا القديمة قد عفاها تقلب الأحوال ، فلم يبق منها إلاّ رسوم وأطلال ، وقامت على أنقاضها (٧) الآن قرى حقيرة ، منتشرة في هاتيك الربوع الدائرة (٨) يأوى إليها شرادم (٩) من بقايا الأمم الغابرة ، كأنها لم تبق إلاّ لتشهد بما تجنيه الحروب من الدمار ، وما يحدّثه تفريق الكأمة من التباب والبوار .

-
- (١) تناوحت : تقابلت .
 (٢) الهضاب : جمع الهضبة وهي الجبل يعلوه انبساط .
 (٣) نشزت : ارتفعت وظهرت .
 (٤) هامها : جمع هامة وهي الرأس .
 (٥) آجامها : جمع الأجمة وهي الأشجار الكثيرة .
 (٦) العريقة : المتصلة ، القديمة . الحضارة : المدن .
 (٧) الأنقاض : جمع النقص وهو المهدم من الأبنية .
 (٨) الدائرة : البالية .
 (٩) الشرادم : جمع الشردمة وهي الجماعة القليلة من الناس .

٧- إبراهيم اليازجي الحكيم حكم مأثورة

تتردد كثير من الحكم في مقالات الشيخ ومصححاته وكلها تنبئ عن مبادئ قومية وأخلاق عالية وصفات حميدة وأمثلة تحتل وهالك بعضها :

« التحدث في الخسارة ، خسارة أخرى من الوقت » .

« إذا ارتكب الإنسان الرذيلة ولم يعلم به أحد فأقل ما عليه أن يخجل من الإنسانية » .

« لا يرتقى المرء في سلم الكمال حتى يعرف قدر نفسه . عرفنا الله بأقدار أنفسنا » .

« مثل بعض السادات ومرؤوبيتهم مثل بعض الناس يصنعون الصنم بأيديهم ثم يعكفون على عبادته » .

« من أنفق أيامه في الخير لا يحزن على زوالها ، كمن أنفق أمواله في اعتقاد العقيد » .

« كان يقال في القديم : قيمة المرء ما يحسنه ، فصار يقال اليوم : قيمة المرء ما يخزنه (١) » .

بعض المراجع

١ - المؤلفات

- إبراهيم اليازجي : ديوان العقد .
 نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد .
 العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب .
 رسائل اليازجي .
 محمد جميل بيهم : قوافل العروبة ومواكبها .
 منصور طنوس الخورى : الحملة الكسروانية .
 يوسف الدبس : موجز تاريخ سوريا .
 عيسى ميخائيل سابا : العدد ٦ من نوابع الفكر العربى .
 جرجى زيدان : آداب اللغة العربية .
 أنطونىوس شبلى : الفلسفة اللغوية .
 أنطونىوس شبلى : الشدياق واليازجى .
 أنيس الخورى المقدسى : المختارات السائرة .
 عيسى إسكندر المعلوف : تاريخ المشايخ اليازجيين وأصهارهم .
 حنا الفاخورى : تاريخ الأدب العربى .

٢ - المجالات والنشرات

مجلة الضياء . مجمع المسرات . مجلة النفائس . مجلة المعصرة . جريدة الأحوال
 البيروتية (العدد الصادر فى ١٩-١٢-١٨٩٣)